

منان قایل

نوال السعدوى

حنان قابل

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٨٦ - بيروت

الطبعة الثالثة

١٩٨٩ - بيروت



منازل قايك

كانت تجلس القرفصاء على بلاط الحمام البارد ، وجسمها الضئيل الضامر ينتفض من البرد ، واسنانها تصطك .. وأخذت تتلقت حولها في الحمام الواسع مذهولة .. أهذا هو الحمام ؟ .. لم تكن تتصوّر أنه يمكن أن يكون في العالم حمام بهذا الشكل ، فإنّ الحمام الوحيد الذي رآته في حياتها هو حمام العمدة .. وقد دخلته مرّة واحدة صدفة حينما كانت تلعب « المساقة » مع ابنة العمدة ، وابنة شيخ الغفر ودخلت لتختفي في حجرة في آخر الدوار ، قالت عنها ابنة العمدة إنها الحمام .. ورأت فيه طشتاً كبيراً ، وزيراً ، وفنطاساً ضخماً في نهايته صنبور صغير ، ولم تكن قد رأت صنبوراً قط في حياتها ، أو حماماً .. وكان كل ما رآته في دار أبيها طشتاً وكوزاً من الصفيح تنقلهما أمها من قاعة الى قاعة كلما رغب فرد من أفراد البيت في الاستحمام .. وكانت ترى أمها تضع في هذا الطشت نفسه الدقيق لتنخله ، وفي موسم

الحصاد ترى الطشت مملوءا بالشعير ، وفي موسم « الذرة »
مملوءا « بالذرة » .

وتلقت حولها في دهشة ، ومسحت بطرف جلبابها عينيها
الملتهبتين وأنفها ، وأخذت تُشامل ذلك الشيء الابيض اللامع
الذى يشبه الحوض الواسع ، والذي لو ملئ بالماء لفرقت فيه
.. وتلك الصنابير الفضيّة الكبيرة التي تعلوه ..

ورأت حوضاً آخر صغيراً معلقاً في الحائط تعلوه أيضاً
صنابير كبيرة برّاقة .. ورأت شيئاً عجيباً ابيض يشبه الكرسي
وليس بكرسي .. وشيئاً آخر يشبه سلطانية الشوربة ولكنه
كبير الحجم جداً يتسع لسائق جدي أو خروف ..
وكففت دمعها وأخذت تتحسّس بيديها السمرراوين الحشنتين
أرض الحمام الملساء الناعمة في مثل نعومة الصحن المصنوع
من الخزف ..

- بت يا بهيّة .. يا بهيّة ..

جاءها صوت رفيع حادّ من خلال باب الحمام المغلق ..
فانتفضت لسماع اسمها .. ووقفت مذعورة حائرة .. ماذا
تفعل ..

أصبح الصوت الرفيع أكثر حدّة فارتجفت بهيّة وهي
تمسك بأكرة الباب البراقة تحاول أن تلوّيها لتفتح الباب ،
ولكن الأكرة أبت أن تتحرّك فالصقت فمها بالسباب وقالت
بأعلى صوتها كما كانت تنادى على أمّها في الحقل :
- ده أنا جوه فى اللى اسمه ايه الحمام مش عارفه أطلع ..
ووقفت بهيّة مشدومة حينما رأت أكرة الباب تتحرّك
وحدها ثم يفتح الباب .. ورأت أمامها امرأة بضّة نظيفة ..
ثم رأت يد المرأة ترتفع الى أعلى ، ثم تهوي على وجهها النحيل
في لكمة قوية ..

- انت قاعده جوه الحمام بتعمل ايه .. مين قالك تدخل
هنا ؟

- معهلش يا ستى .. والنبي يا ستى .. ربنا يخليكى
يا ستى .. مش أنا والنبي .. ده الراجل عبده اللى عندكم
قال لى اقعدى هنا لغاية ماستك تنادى عليكى ..
وفهمت بهيئة منذ ذلك اليوم ما يجب في هذا البيت وما لا
يجب .. وما عليها ان تعمله وما لا عمله .. ما هو محلل
وما هو محرّم .. وكان يعمل معها في البيت نفسه طباخ
اسمه عبده يبني في حجرته فوق السطح ، وفتاة أخرى
كبيرة تبيت معها على دكة خشبية في أحد أركان المطبخ ..
وانست بهيئة الى خديجه ، حتى راحت تروي لها كيف قتل
والدها .. وهما تتسليان بالحديث قبيل النوم .. ولكن
خديجة نفرت من الحديث خشية أن يطلع لها عفريت القليل
.. وفضلت أن تنام .. وسرعان ما كان شخيرها يملا
المطبخ ..

وظلّت عينا بهيئة مفتوحتين لا يغلبهما النعاس .. وراحت
تفكر في أمّها ، وفي أختها الرضيع زينب .. وهمست
لنفسها « يا ترى يا أمه بتعملى ايه دى الوقت ؟ »
وعادت اليها صورة ابيها قبل مقتله بدقائق ، وهو يمسك
بيدها في السوق ، ويضرب بعصاه الأرض فى قوة وبأس .
ووقفت عند هذه الصورة لا تجرؤ على الاسترسال في
ذكرياتها .. فلقد بدأت تشعر بالخوف لو أنها استعادت
صورة مقتله ، وتكوّرت بجانب خديجة ، والتصقت بها تريد
أن تلمس من دفئها بعض الطمأنينة والأمن .. وأغمضت
عينيهما لتنام .. لكن صورة أمها بشياها السوداء المتربة
وقامتها النحيلة وبشرتها الصفراء تجلس على عتبة الدار ،
وفي حجرها أختها زينب تمتصّ اللبن من ثديها الهزيل

الحصاد ترى الطشت مملوءا بالشعير ، وفي موسم « الذرة »
مملوءا « بالذرة » .

وتلقت حولها في دهشة ، ومسحت بطرف جلبابها عينيها
الملتهبتين وأنفها ، وأخذت تُأمل ذلك الشيء الابيض اللامع
الذي يشبه الحوض الواسع ، والذي لو ملئ بالماء لفرقت فيه
.. وتلك الصنابير الفضية الكبيرة التي تملؤه ..

ورأت حوضاً آخر صغيراً معلقاً في الحائط تملؤه ايضاً
صنابير كبيرة براقية .. ورأت شيئاً عجيباً أبيض يشبه الكرسي
وليس بكرسي .. وشيئاً آخر يشبه سلطانية الشورية ولكنه
كبير الحجم جداً يتسع لسلق جدي أو خروف ..
وكفكفت دمعها وأخذت تتحسس بيديها السمراوين الخسنتين
أرض الحمام اللساء الناعمة في مثل نعومة الصحن المصنوع
من الخزف ..

- بت يا بهيّه .. يا بهيّه ..

جاءها صوت رفيع حادّ من خلال باب الحمام المغلق ..
فانتفضت لسماع اسمها .. ووقفت مذعورة حائرة .. ماذا
تفعل ..

اصبح الصوت الرفيع اكثر حدة فارتجعت بهيئة وهي
تمسك باكرة الباب البراقة تحاول أن تلويها لتفتح الباب ،
ولكن الأكرة أبت أن تتحرك فالصقت فمها بالسباب وقالت
بأعلى صوتها كما كانت تنادى على أمها في الحقل :
- ده أنا جوه فى اللى اسمه ايه الحمام مش عارفه أطلع ..
ووقفت بهيئة مشدوّه حينما رأت أكرة الباب تتحرك
وحدها ثم ينفتح الباب .. ورأت أمامها امرأة بضّة نظيفة ..
ثم رأت يد المرأة ترتفع الى أعلى ، ثم تهوي على وجهها النحيل
في لكمة قوية ..

- انت قاعده جوه الحمام بتعملى ايه .. مين قالك تدخل
هنا ؟

- معهلش يا ستى .. والنبي يا ستى .. ربنا يخليكى
ياستى .. مش أنا والنبي .. ده الراجل عبده اللى عندكم
قال لى اقعدى هنا لغاية ماستك تنادى عليكى ..
وفهمت بهيئة منذ ذلك اليوم ما يجب فى هذا البيت وما لا
يجب .. وما عليها ان تعمله وما لا عمله .. ما هو محلل
وما هو محرّم .. وكان يعمل معها فى البيت نفسه طباخ
اسمه عبده يببت فى حجرته فوق السطح ، وفتاة اخرى
كبيرة تببت معها على دكة خشبية فى أحد اركان المطبخ ..
وانست بهيئه الى خديجه ، حتى راحت تروى لها كيف قتل
والدها .. وهما تتسليان بالحديث قبيل النوم .. ولكن
خديجة نفرت من الحديث خشية ان يطلع لها عفريت القتيل
.. وفضلت ان تنام .. وسرعان ما كان شخيرها يملا
المطبخ ..

وظلّت عينا بهيئة مفتوحتين لا يغلبهما النعاس .. وراحت
تفكر فى أمّها ، وفى أختها الرضيع زينب .. وهمست
لنفسها « يا ترى يا أمه بتعملى ايه دى الوقت ؟ »
وعادت اليها صورة أبيها قبل مقتله بدقائق ، وهو يمسك
بيدها فى السوق ، ويضرب بعصاه الأرض فى قوة وبأس ..
ووقفت عند هذه الصورة لا تجرؤ على الاسترسال فى
ذكرياتها .. فلقد بدأت تشعر بالخوف لو أنها استعادت
صورة مقتله ، وتكوّرت بجانب خديجة ، والتصقت بها تريد
ان تلمس من دفئها بعض الطمأنينة والأمن .. وأغمضت
عينيهما لتنام .. لكن صورة أمها بثيابها السوداء المتربة
وقامتها النحيلة وبشرتها الصفراء تجلس على عتبة الدار ،
وفى حجرها أختها زينب تمتص اللبن من ثديها الهزيل

الضامر .. ورات نفسها تجلس الى جوارها تنبش في التراب
وهي تحسّ آلام الجوع اذ مضت ايام كثيرة لم تصب فيها الا
بعض كسرات من الخبز المقدّد ، وقطعة خيار مخلّلة عثرت
عليها في قاع « الزلعة » ..

وانتهت على رجل ، افندي يقف امام امها ، ومعه نفوسة
تاجرة الفراخ .. ولم تفهم كل الكلام الذي كانوا يقولونه ،
ولكنها التقطت كلمة « بهيّة » من بين كلامهم فأرھفت السمع
لترى ماذا يمكن أن يكون لها من شأن في هذا الحديث الجادّ
مع هذا الافندي النظيف ..

وسمعت الافندي يقول :

- هي سنّها كام ؟

فاجابت امها :

- عشر سنين والنبي ..

فقال الرجل :

- ياه .. دى لسه صغيره قوي ..

فاجابت نفوسة :

- صغيرة ايه يا سى محمد .. دى لهلوبة في الشغل تمسبح
وتفسل ، وتحمل المحروسة الصغيره ، دى بكره تعجبك وتبقى
عال قوى .. قومي يا بت يا بهيّة .. قومي بوسي ايد
سيدك ..

وقامت بهيّة .. إنها لا تستطيع الا أن تطيع بعد أن رات
امها تنكس رأسها دلالة على الموافقة ..

وأخذها الافندي معه .. وقبل ان تمضي معه استدارت الى
أمها الجالسة على عتبة الدار ، وفي حجرها اختها زينب قائلة:

- أقعدي بالعافيه يا امه .. خي بالك من زينب ..

وسمعت امها تقول :

- الله يعافيك يا بهيّة .. خي بالك من نفسك ..

ورأتها تمسح عينيها وأنفها بكمّها ، فاستدارت مسرعة ،
وسارت في أثر الافندي ٠٠ وقلبا ينوء بثقل كبير ٠٠

وفتحت بهيئة عينيها في الصباح الباكر على صوت رفيح
حادّ يقول :

- بت يا بهية ٠٠ انت لسه ما صحيتيش ؟
فانتفضت بهية في فزع ٠٠ وفتحت عينيها ٠٠ وحينما
رأت المطبخ الواسع ، وموقد الغاز ، والثلاجة الكبيرة عرفت
أنها في مصر ٠٠ في بيت سيدها محمد أفندي الشهدي ٠٠
وليس في دارها بقرية كفر خناش ٠٠ وردت :
- حاضر ياستي ٠٠ أنا صاحيه ٠٠
وانطلقت بهية الى سيدتها ٠٠ فوجدتها مضطجعة على
سريرها الوثير ، تحتضن طفلتها ، وترضعها من ثدي بضّ ،
٠٠ صمين ٠٠

- انت يا بنت لسه نايمه ؟
- لا يا ستي أنا صاحيه من الصبح ٠٠
- خدي اللفف دى اغسليها في الحمام ، وانشريها في
البلكونة ٠٠ وبعدين تعالي بسرعة علشان تحلمي نوسه ٠٠
- حاضر يا ستي ٠٠
وفي لمح البصر طارت بهية لتفعل ما امرته به سيدها ٠٠
ثم حملت الطفلة الصغيرة على ذراعيها ، ووقفت تهددها .
- بس ياستي نوسه ٠٠ بس ٠٠ بس ياستي نوسه
يس ٠٠ بس .
وكفّت الطفلة عن البكاء ، واخذت بهية تتأمل وجهها ،
وعينيها ، وشفتيها ٠٠ فرأت أنها تشبه أختها زينب شبها
غريبا ٠٠ وخيل لها أنها هي فاحتضنتها بحنان وقوة الى
صدرها ، وقبّلتها ٠٠

ولم تكذ ترفع وجهها عن الطفلة حتى انتفضت على الصوت
الرفيع الحادّ يقول غاضباً :

- انت بتبوسيتها يابت يا بهيّه ؟ عمى في عينك .. اياك
تانى مره تبوسيتها ، والا تقربى وشك من وشها كده ..
فاهمه ؟

وقبل أن تنطق بهية بحرف أحست بيد تهوى على وجهها
فى صفة قوية ..

- حاضر يا سنى .. معلش يا سنى .. والنبي ياستى
حرمت ..

وابتعدت اليد عنها فهدأت دقات قلبها ، وانتظمت أنفاسها
.. وحملت الطفلة بين ذراعيها ، وهى تحاول أن تبعد وجهها
عنها بقدر ما تستطيع ..

وتأملت وجه الطفلة مرة أخرى .. فلم تر فيها أيّ شبه
بينها ، وبين أختها زينب .. ورات في عيني الطفلة استعلاء
وقسوة يشبهان الاستعلاء والقسوة في عيني أمها . وشعرت
أنها تكره هذه الطفلة وتحقد عليها ..

أهكذا يكون جزاؤها ؟ إنها لم تفعل شيئاً ، لم تخطئ ،
لم تكسر كوباً أو طبقاً .. لقد قبّلت الطفلة فحسب ، وقبّلتها
لأنها تحبّها وتحنو عليها .. أهكذا يكون جزاء الحبّ والحنان؟
وأشاحت بوجهها بعيداً عن الطفلة وأخذت تهددها بالية
ليست فيها عاطفة .. وتذكرت أختها زينب .. ترى من
يهددها ؟ .. كثيراً ما كانت تسمع بكاءها وهي نائمة على
الأرض في صحن الدار ، وقد تعرّى ردفها ، وغشي التراب
أنفها وفمها ، فتجري اليها ، وتمسح وجهها ، وتهدهدها ،
وتقبّلها ، وترعاها حتى تعود أمّها من الحقل .
ترى من يجري اليها الآن .. ترى من يمسح لها التراب
من فوق أنفها وفمها ؟

ونظرت بهيّه الى وجه الطفلة التي تحملها ، وجه ناعم
نظيف بلا تراب .. وهي تهددها ، وتلاعبها كلما همّت
بالبكاء .. أليست أختها زينب مثل هذه الطفلة .. ألا
تستحق أختها هذا الحنان ؟

ويصفعونها بعد كل ذلك لأن في قلبها حنانا !
وأحسّت بهيّه ، طفلة العاشرة ، بشورة عارمة تضطرم في
أعماقها .. ولم تشعر إلا وهي تضع الطفلة على السرير ،
وقد غمرها شعور بأنها لا تريد ان تحملها بين ذراعيها ..
ووقفت بجوار الطفلة كالتمثال تنظر اليها في كراهية ..
وبكت الطفلة تريد أن تحمل ..

وكانت أمّها في الحمام .. فنادت على بهيه بأعلى صوتها :
- نوسه بتعيّط ليه يا بنت يا بهيه ؟
ولم ترد بهيّه ، واقتربت من الطفلة ، وأخذت تربّت عليها
لتكفّ عن البكاء .. لكن الطفلة التي كانت قد تعوّدت أن
تحمل ظلت تبكي وتصرخ ..
وجاءها الصوت الرفيع الحادّ الغاضب ؛
- نوسه بتعيّط ليه يا بنت ؟

واغتاضت بهيّه .. ممن ؟ لم تكن تدري .. أمن الأمّ
القاسية ، التي تنادىها غاضبة .. أم من الطفلة المدلّلة التي
تريد أن تحمل ؟ ولم تعرف تماماً ماذا فعلت .. لكنها رفعت
يدها في الهواء وهوت بها على وجه الطفلة في لطمة قوية ..
ثم جرت الى باب الشقة وفتحته ، وانطلقت في الشارع تعدو .
ولم تهدأ بهيّه الا بعد أن ابتعدت عن بيت سيّدها كثيرا ..
ورأت رجلاً تبدو على ملامحه الطيبة ، فسألته عن
« الكافورى » الذي يمكن أن يوصلها الى قرية كفر خناش ..
وكان الرجل طيباً فدلّها على الطريق .. وأعطّاها بعض
القروش ..

وجلست بهيئة على أرض « الكافورى » فقد أبى الكمسارى
أن يمنحها كرسيًا لتجلس عليه ، لأن القروش التي كانت
معها لم تكف لتصرف بها نصف تذكرة .. وتبرّع لها
الكمسارى بحيز صغير من أرض العربة حتى تصل الى
قرينتها ..

ووقفت العربة فى « كفر خناش » .
وانتفضت بهيئة واقفة على قدميها .. وقفزت من العربة ،
ووضعت ذيل جلبابها بين أسنانها وأطلقت ساقها للريح .
ووجدت باب الدار مفتوحا كعادته دائما .. فاندفعت
داخلة متلهفة .. وقبل أن تصل الى صحن الدار سمعت صوت
أختها زينب تبكي بحرقة .. فجرت اليها .. ورأتها كما
كانت تراها دائما عارية الردفين ، والتراب يغشى أنفها
وشفتيها ..

– يا حبيبتي يا زينب !

وأخذتها بين ذراعيها ، وراحت تغمر وجهها بالقبلات ..
وتنهّدت بهيئة فى سعادة .. إنها تستطيع أن تحبّ زينب كما
تريد ، وتحنو عليها كما تريد .. وتقبلها كما تريد .. لن
ينهرها أحد ولن تتلقّى عن ذلك صفعات أو شتائم ..
وضمّت بهيئة أختها الى صدرها أكثر وأكثر .. وحينما
رأت أمّها تدخل من باب الدار قالت لها :

– ما هانتش عليّ زينب يا امه .. قلت آجى أشيلها ..

وأجابت أمّها والدموع فى عينيها :

– بركه يا بنتي إليّ جيتي ..



كرامة

كان عقلي مشلولاً لا يريد أن يفكر .. بل لا يستطيع أن يفكر حتى لو أراد .. وكانت نفسيّتي منهاره مهلهلة ، فتأتها هنا وهناك في ثنايا أعماقي الحالكة فلا أهتدي الى شيء منها . ولم اكن احسّ شيئاً إلاّ قدمي المنهوكتين وهما تنتقلان بلا وعي في خطوات ممزّقة ضالّة .. وبعد أن همت في طرقات عديدة لا أكاد أتبينها وجدتنى فجأة أمام بابه .. باب مكتبه .. وقرأت اسمه على الرقعة النحاسيّة الصفراء .. فارتجفت .. وهممت أن أستدير ، وأعود من حيث أتيت ، فلم أستطع .. وقفت أحملق كالمعتوهة في حروف اسمه : « ضياء الدين توفيق ! » آه .. إنه اسمه .. إنه هو .. إنه مكتبه ! .. باب مكتبه نفسه الذي شهد خروجنا ودخولنا كل يوم لمدة خمس سنوات كاملة .. وكثيراً ما كنا نقف أمام هذا الباب في الظلام ، ويأخذني بين ذراعيه ويقبّلني ، وتترأى لي الرقعة النحاسيّة وعليها اسمه ، وكأنها تهتزّ من فرط السعادة والنشوة ، وتتراقص حروف اسمه وتضيء بنور

جميل فاهمس له قائلة : ضياء .. أحبك ! .. خمس سنوات
كاملة ، بأيامها ولياليها ، أحبته .. وعشت لحظات عمري
معه سواء كنا معاً أو فصلت بيننا آلاف الاميال حينما كان
يسافر ، وكثيراً ما كان يسافر في بعثاته الصحفية ..
ثم .. آه .. لعلمي انسى !

كان اليوم منذ سنتين .. صباح اليوم الذي كنت استلقي
فيه على فراشي ، وأتأهب ، واستعيد في سعادة كلماته
الرقيقة لي ، وأتحتس موضع شفتيه الملتهبتين على وجهي ..
وأخذت أقلب صفحات جريدة الصباح في تكاسل لذيذ ..
وفجأة خارت قسواي .. وتوقف قلبي عن ضرباته ..
وأخذت أذناي تصفران بصفراً عالياً جعلني صمماً .. واهتزت
الكلمات السوداء المطبوعة أمام عيني لكنني استطعت أن أقرأها
مرة ومرتين وثلاثاً ، وأنا لا أحسّ بنفسي .. وكأنني في
حلم ..

وقرات للمرة العشرين خبر زواجه وأنا لا أصتق ..
وظننته رجلاً آخر يحمل اسمه .. وجريت كالمسوعة الى
التليفون ، وقالت لي شقيقته في سخريه لا تخلو من مزيج
من الشفقة والتشفي :

- أيوه .. ضياء .. إنه في بيته يا « شوقيه » .. لقد
تزوج .. ألم تعرفي ذلك ؟
وكانت بي بقية حياة ، فاستطعت أن أردّ عليها قائلة :
- أشكرك ..

ولكن .. ما بالي أقف بعد سنتين من البعد عنه كالمعتوهة
إمام باب مكتبه .. لا أستطيع الدخول .. ولا أستطيع
العودة ؟ .. آه .. لبت قلبي يتوقف الآن تماماً فاموت واقع
جثة هامدة هنا حتى يتعثّر بجثتي وهو خارج فيراني ! ويرى
ماذا فعل بي .

ووقفت أمام اللوحة النحاسية التي تحمل اسمه أفكر ،
ولا أفكر .. وقلت لنفسي في جراءة الضعيف الذي يريد أن
يمنح نفسه بعض الشجاعة :

- فلأدخل .. ماذا سيحدث ؟ هل ستنطبق السماء على
الأرض ! .. لن يحدث شيء . سوف يقابلني بفتور غاية ما
في الأمر ، أو سوف يقابلني بحرارة أكثر ما في الأمر ..
ولن يكون هناك فارق كبير عندي بين هذا وذاك .. فلقد
انتهى ضياء من حياتي ، وخرج من نطاق آمالي وأحلامي ..
لكنني أريد أن أراه .. أريد أن أنظر في عينيه ، وليكن
ما يكون . فهو الوحيد الذي أحبه .. وهو الوحيد الذي
يفهمني .. وتذكرت كرامتي التي منعتني من لقائه طوال
هاتين السنتين ..

ولكن اليوم ، بل هذه اللحظة ، لا أستطيع أن أراه .. ولا
أرى دخلاً للكرامة في ذلك .. فانا لا أريد أن أتزوج ، فهو
رجل متزوج .. وان لم يكن متزوجاً فلست أفكر في الزواج
منه ..

أنا لا أريد منه سوى أن أراه .. وأحادثه .. ودفعت
الباب برفق ، واخترقت الدهليز الطويل الذي يقود الى حجرته
.. ورأيت باب حجرته مغلماً فانتابني اليأس .. لكنّ الأمل
دفعني الى أن أدفع بابه فانفتح ، وحقّق قلبي بشدة كأنني
مقدمة على عمل جليل ، وليست مجرد زيارة قصيرة لدقائق ..
ورأيته جالساً الى مكتبه فاشتدت خفقات قلبي ، ورفع
رأسه من فوق الأوراق المتراكمة على مكتبه .. ورأني . وظل
برهة قصيرة محدقاً فيّ وأنا واقفة على عتبة الباب لا أستطيع
أن ادخل ، ولا أن أخرج كأنما سُلت قدمي .. ثم أفاق
لنفسه ، وسمعته يقول وهو يقف ويقبل نحوي باسمًا :
- أهلاً شوقيه .. اتفضلي ..

وتحرّكت نحوه في ببطء وأنا لا أدري تماماً بكيانى ..
واقتربنا من منتصف الحجر ، ولم يكن يفصلنى عنه الا خطوة
واحدة .. ورأيتة يمدّ يده اليّ .. ورفعت يدي لأصافحه ..
فأحسست بها ثقيلة كأنها نصف مشلولة واستقرت يدي في
يده برهة قصيرة أحسست فيها بكل عواطفى القديمة تنقد
فجأة .. ولم أستطع .. وجسدتني من حيث لا أدري بين
ذراعيه وفي أحضانه ، رأسي على صدره العريض ، وشفتاه
الداثتان تلثمان كل جزء من وجهي وشعري .. ودموعي
تبلل وجهي ..

وأفقت لنفسي بعد لحظة .. آه .. ما هذا الذى فعلت ..
وسحبت نفسى منه شيئاً فشيئاً ، وابتعدت عنه ، وجلست
على كرسيّ رأيتة أمامي وجلس هو الى جوارى .. وقلت بعد
فترة صمت في صوت ضعيف ممزق :

- ضياء .. أنا آسفة لأنني أتيت اليك اليوم ، لكنتي
تلقيت صدمة ثانية من « رهوف » .. و ..
وقاطعنى قائلاً :

- رهوف ؟ .. من هو رهوف ؟

- رجل .. مثل كل الرجال .. عرفتة صدفة بعد أيام
من قراءتي لخبر زواجك ، وكنت يائسة مغضبة مصدومة ..
وكان رقيقاً مهذباً لطيفاً .. ورحبت بصداقته .. ثم حبّه .
الحق أني لم أحبّه يا ضياء ، لكنني كنت في حاجة الى أي أحد ،
رجل أو امرأة .. ليسرّي عني .. ليحدّثني . ليملا الفراغ
الذى خلفه فراقك في حياتي ..

وكان رهوف رقيقاً حنوناً ، وكنت في حاجة الى الرقّة
والحنان .. وأحبّتي ، أو هكذا قال .. ولم أنفذ الى أعماقه ،
لأعرف هل هو صادق أم كاذب .. ماذا كان يهمني من
أعماقه ؟ فليكن ما يكون ، كاذباً أو صادقاً، فانا لا أريد منه

الا أن يظهر لي الحبّ .. أن يعاملني برفق .. أن يحنو عليّ
ساعة لقائي به وكفى .. لا أريد أكثر من ذلك شيئاً .
لقد علمتني صدمتي فيك أن أقنع باليسير .. أن أكتفي
بالظاهر ولا أنبش في الأعماق .. بل أهرب منها حتى لا
تصدمني حقيقة أخرى .. وقلت لنفسي فلاحاول أن أعيش
في سعادة كاذبة على أن أعيش في واقع صادق مؤلم ..
ولكن لم أستطع يا ضياء .. لم أستطع أن أغتير نفسي
طويلاً .. سرعان ما أفقت لنفسي ، أو أفاق هو لنفسه ..
ولعله كان أيضاً هارباً مثلي من صدمة ، ويكتفي مني بظاهري
ولا يبحث عن أعماقي .. أو لعله كان يريد أن ينسى بي حباً
قديماً كما كنت أفعل .. ومثل هذه الأشياء لا تدوم طويلاً
يا ضياء ..

وكان ضياء يجلس الى جوارى .. يستمع اليّ وفي عينيه
ألم بليغ .. وأحسست بسعادة خفية حينما لمحت الألم في
عينيه .. لم أدر لماذا ؟ لكنني شعرت أنه كان يحسنّ ، وأنا
أتكلم ، أنه المسئول عما حدث وأنه سبب شقائي ..
ضياء يتألم !! .. ومن أجلي ؟!

هذا هو ضياء كما عرفته ، وكما أحببته .. وهذه هي
نظرة الألم في عينيه من أجلي لم تتغير ولم تتبدل .. كأنه لم
يصدمني أبداً .. كأنه لم يهجرني أبداً .. كأنه لم يتزوج امرأة
غيري !

ولم أعاتبه .. بل لم أفكر في أن أعاتبه ، رغم أنني كنت
أنوي ذلك في أول لقاء لي بعد زواجه .. لكنني نسيت أنه خان
عهدي ، أحسست من نظرة الألم في عينيه أنه إنسان صادق،
أنه لا يستطيع أن يخدع أحداً ، لا شك أنه أجبر على الزواج
إجباراً ، ولعلّ وراء ذلك سبباً لا أعرفه ..
وعاد اليّ حبي القديم له دفعة واحدة .. ورآه في عيني ..

فهو يفهم نظراتي • وقلت له :

- ضياء •• إنك رجل فاضل •• أفضل رجل عرفته •
إنك إنسان نبيل ، أنبل انسان عرفته ••
كيف قلت له ذلك ؟ لم أدر ••
أفضل رجل ! أنبل رجل ! كيف ؟ •• هو الذي لفظني
كالنواة ، وتزوج امرأة غيري دون أن يطلعني على الخبر !
لم أعرف كيف قلت له ذلك •• لكنني أحسست في عينيه
الصدق ، والفضيلة ، والنبيل ، وأحسست في لمسات يديه
العاطفة الحقيقية التي لاتعرف الزيف أو الكذب ••
ومضى وقت الزيارة سريعاً •• ولم أشعر الا وأنا أقف
وأقول له :

- طيب يا ضياء ، أشكرك على حسن استقبالك لي ، وأرجو
لك حياة سعيدة ••
ومددت له يدي لأنصرف ، وظلّ ممسكاً بها بعض الوقت ،
ثم قبلها أصبعا أصبعا ، كما تعود أن يفعل طوال سنيّ حبنا
•• وقال لي :

- شوقية •• هل ساراك مرة ثانية ؟

- طبعاً ••

- متى ؟

- قريباً جداً ••

وهمت بأن أخطو نحو الباب ، لكنني تذكرت شيئاً فجأة
فقلت له :

- على فكرة •• ما رأيك في الزواج بعد ان تزوّجت ؟

هل أنت راضٍ عنه ؟

ولم يردّ بسرعة •• ولم يبتسم كعادته •• اخذ يفكر برهة
قبل أن يجيب ، وأحسست من تردده أنه يحاول أن يغيّر
شيئاً مما كان يريد أن يقوله ، وأشفقت عليه من أن يقول ما

يريد .. وأشفت على نفسى من سماع ما سيقوله .. فقلت نه
بسرعة :

- لا تفكر كثيراً يا ضياء ، فانا لا أريد أن اسمع الردّ أياً كان
.. سأحاول أن أراك مرة أخرى ..

وخرجت مسرعة .. خرجت أعدو كأنما ورائي شبح يطاردني
.. وواصلت عدوي حتى وصلت الى بيتي ، وجريت الى حجرتي
الهدث وأغلقتها على نفسي .. آه .. ماهذا الذى فعلت ؟
وتقلّبت في فراشي .. ثورة عارمة تجتاح نفسي . ليست
ثورة على ضياء ، وليست ثورة على رءوف ، وليست ثورة على
أحد .. وانما ثورة على نفسي .. وسمعت كلمة تتردد في

أعماقى ..

كرامة !

كرامة ! .. تلك الكلمة التى ترنّ فجأة في أعماقى وتحاسبني
بلا رحمة ولا شفقة .. ضياء ؟ .. مرة أخرى ضياء ؟ تذهبين
اليه ! الرجل الذى خان عهدك .. الرجل الذى أحبك خمس
سنوات ، ثم تزوّج امرأة أخرى في يوم وليلة ؟ ثم تتهاوين
بين ذراعيه ، وتذرفين الدموع بين يديه ، وتقولين له أحبك ،
وتتركين له شفتيك مرة أخرى ؟ ..

ثم تعترفين له بما كان بينك وبين رءوف ؟
ما هذا الذى فعلت ؟

وأحسست يضغط شديد في رأسي ، كأنما يوشك أن
ينفجر .. وتقلّبت في الفراش أبحث عن شيء من الراحة
ووضعت الوسادة على رأسي ، وضغطت عليها بكل قوتي لأوقف
هذا السيل المتدفق من الأفكار .. لكن رأسي ظلّ مشحوناً
مضغوطاً ..

وفجأة دقّ جرس التليفون .. فرفعت السماعة الى اذني فى
إعياء .. وجاءني صوته نفسه .. ضياء ! الصوت الذى كان
يحدثنى كلّ يوم خمس سنوات متتالية .. كيف أنساه ! ..

الصوت العميق الدافئ الخاني الذي كان متلهفًا دائماً .. كيف
أنساه ! .. وقال بنفس صوته القديم :
- شوقية .. أريد أن أقابلك الليلة .. لقد خرجت بسرعة
فلم أقل لك كل ما أريد .. هل أستطيع أن أراك الليلة ؟
وسكتت قليلاً لأفكر .. وكنت في حاجة الى شيء يريحني
من عندي .. ويخمد تلك الكلمة التي تتردد في أعماقي :
كرامة ! .. تلك الكلمة القوية الطاغية التي تسحقني سحقاً
.. كرامة !

وأردت أن أخفف رأسي من ثقله ، وقلبي من لوعته ، فقلت
له وأنا أستعين بكل ما في نفسي من شجاعة وقوة :
- اني آسفة يا ضياء ، لا أستطيع أن أراك مرة أخرى ..
ووضعت السماعة في مكانها ، وعدت الى فراشي خفيفة ،
كانما فقدت نصف وزني .. ووضعت رأسي على الوسادة ..
رأس هادئ ، مستقر .. وبحثت عن تلك الكلمة الجبارة التي
ترن في أعماقي فلم أجدها .. لا أدري أين اختبأت مني ..
وابتسمت لنفسي في زهو وانتصار وقلت :
- جبانة ! جبانة تلك الكلمة التي اسمها كرامة !

الطريق

- لا أريد أن تحبني .. أرجوك .. أنا لست فاضلة كما
تظن ..

قالت هذه الكلمات ، وهي تجلس معه على شاطئ النيل ،
وتفصل بينهما مائدة صغيرة عليها زجاجة بيرة مثلجة وكوبان
فارغان ، وطبق مشهيات « أورديفر » كبير .

ولم يرفع عينيه اليها .. مَدَّ يده الى زجاجة البيرة ، وملا
الكوبين ، ثم ناولها واحداً ، وأخذ لنفسه الأخير .. وقال وهو
ينظر في عينيه .. ويقرب كوبه من كوبها « في صحتك ..
وسعادتك » .. وصمت قليلا ثم قال :

- سعادتنا ..

وقربت « ليلى » الكوب من شفتيها وأخذت رشفة .. وسرت
البيرة المثلجة في جوفها الساخن فأنعشتها ، وبددت شيئاً من
ذلك الوجوم الذي كان يملا نفسها .. والتفتت ناحية النيل
وهامت نظراتها الشاردة على صفحته السوداء الرقيقة ، وهي
تمرّ بين صقّين طويلين متقطّعين من النور الأخضر الفاتح؛ صفت
فوقها ثابت واضح ، وصفت تحتها يهتزّ ويتعرج كلما هبت
نسمة رقيقة .. وتمطّت .. وتنفست .. وابتسمت . ثم
قالت :

- إننى أحبّ الليل .
قال وهو ينظر فى عينيها :
- وأنا أحبك أنت !
وضحكت .. ومالت برأسها الى الوراء .. وعاد يقول لها :
- أهكذا أصبح الحبّ عندك مهزلة ؟
وضحكت مرة ثانية ، حتى دمعت عيناها ، وكساهما بريق
شديد جعلهما يشعان فى الليل كفضّين من الماس ..
وشاركها الضحك ، وهو يقاوم فى نفسه رغبة ، لو أطاها
لقام من مكانه ، وذهب اليها ، حيث تجلس وأخذ رأسها
الصغير بين يديه ، وقبّل كلّ جزء فى وجهها .. حتى عينيها .
وبعد فترة صمت طويلة قالت له وهى تثبت فصّيتها الماسيين
فى مكر :

- وماذا أصبح الحبّ عندك بعد حياتك العريضة المليئة
بالتجارب ؟

وشردت نظراته بعيداً فى الليل ، وهو يداعب شفّته السفلى
بأسنانه ، وتعبث أصابعه الطويلة بشعر رأسه القصير .. ثم
قال بعد فترة وهو ينظر اليها نظرة عميقة جادّة نفذت الى
أعماقها :

- أصبح كلّ شيء ..
- تعنى أننى كلّ شيء لك الآن ؟
- بكلّ تأكيد ..
- إذن فأنت تعرض علىّ الزواج ..
- بكلّ تأكيد .
- هل أنت جادّ ؟
- كل الجدّ ..
- انت رجل جريء جدّاً ..
- لماذا ؟ إنّ معظم الرجال يتزوّجون ..

- إنَّ الرجل الغيبيّ هو الذي يتزوَّج ٠٠ والرجل الذكيّ يتزوَّج في لحظة غباء ٠٠

وضحك ٠٠ وفرد جسمه الطويل في استرخاء ، وأسند رأسه الى ظهر الكرسي . ثم قال بعد فترة صمت قصيرة ، وهو معلق بصره الى السماء :

- ماذا كنت تقصدين بأنك لست فاضلة ؟

- أنتي لست فاضلة ٠٠

- ماذا تعنين ؟

- إنني لا أومن بالحبّ ٠٠ إنَّ الحبّ هو الفضيلة الوحيدة في هذه الحياة، ولكن الرجل والمرأة لا يلتقيان أبدا عند هذه الفضيلة ٠٠

- كيف ؟

- المرأة التي تؤمن بالحبّ تقابل رجلاً لا يؤمن بالحبّ ٠٠
وحيثما يؤمن الرجل بالحبّ يقابل امرأة لا تؤمن بالحبّ ٠٠
- لماذا ؟

- لأن المرأة تبدأ الطريق وهي مؤمنة بالحبّ ٠٠ ثم تفقد هذه الفضيلة في نهاية الطريق ٠٠ والرجل بالعكس ، يبدأ بلا فضيلة ٠٠ ثم يجدها في نهاية الطريق .
- وكيف يكون اللقاء بينهما إذن ؟

وتوقفت أناملها عن دقّ المائدة ٠٠ وحولت عينيها عن السماء الى الماء ، وظلّت تنظر في البحر الغارق في الظلام فترة ثم قالت :

- حينما تقابل امرأة في أول الطريق رجلاً في نهاية الطريق يصبح الاثنان واحداً ويتزوَّجان ٠٠ وحينما تقابل امرأة في نهاية الطريق رجلاً في أول الطريق يبقى الاثنان اثنين ، وقد يتزوَّجان ٠٠ وقد لا يتزوَّجان ٠٠ وحينما تقابل امرأة في أول الطريق رجلاً في أول الطريق يصبح الاثنان ثلاثة ولا يتزوَّجان .

- وحينما تقابل امرأة فى نهاية الطريق رجلاً فى نهاية الطريق أيضاً ماذا يفعلان ؟
- وسكنت لتفكر ٠٠ وثبتت عينيها على كوب البيرة الثلجة ، وقد تكثفت عليه قطرات صغيرة من الماء ٠٠ وأمسكت الكوب ، وأخذت رشفة ٠٠ ثم نظرت اليه ، وابتسمت ، ثم قالت :
- يشربان البيرة فقط ٠٠
- وظافت نظراته على صفحة النيل الهادئة وقال وهو يمسك ذقنه بيده :
- وما طول هذا الطريق ؟
- ليس له طول ثابت ٠٠ قد يكون سنة واحدة ، وقد يكون عشرين سنة ٠٠ وقد يكون العمر كله !!
- ونظر اليها فى مكر وقال :
- وكم كان طول طريقك ؟
- ست سنوات ٠٠ وأنت ؟
- لا أعرف ٠٠ إننى لست فاضلاً بعد ا
- وضحكت فى مرح ٠٠ وشاركتها الضحك ، ورفع كل منهما كوبه الى فمه ٠٠
- ثم قالت ومازالت الابتسامة تضيء وجهها :
- إذن فقد سبقتك ٠٠
- إننى أحبّ المرأة التى تسبقنى ٠٠
- حتى ولو كانت غير فاضلة ٠٠
- إننى أحبّ المرأة التى تقول عن نفسها ، إنها ليست فاضلة ٠٠
- ولكنى لا أقول فحسب ٠٠ إننى فعلاً كذلك .
- هذه الصراحة تعجبني ٠٠
- ولكنها ليست صراحة ٠٠ إنها الحقيقة المرّة !
- ولماذا مرّة ا ٠٠ إننى أحسنّ فى هذه اللحظة أنك أفضل نساء العالم ا

– أوه ! .. عجيب هذا المخلوق الذي اسمه رجل ! .. حينما
تقول له المرأة إنها فاضلة لا يصدّقها أيضا ..
– لأنّ المرأة تقول دائما عكس ما بها ..
– لكنتى لا أشارك النساء هذه الصفة .. أقسم لك إننى
لست فاضلة .. أرجوك صدّقنى !
– لا أستطيع أن أصدّقك ..
– لماذا ؟

– إنّ امرأة مثلك لا يمكن إلا أن تكون فاضلة !
– بل لأن الحقيقة اذا صدرت من صاحبها لا يصدّقها الناس.
ووضع سيجارتين بين شفّتيه .. وأشعلهما وناولهما
احدهما .. وأخذ كلّ منهما ينفث دخانه فى الهواء صامتا ..
شاردا .. ثم مزّق السكون صوته العميق الهادى :

– ماذا قلت ؟
– عن أىّ شيء ؟
– عن الزواج ..
– أىّ زواج ؟
– زواجنا ..
– ولماذا تريد أن تتزوّجنى .. ؟
– لأننى أحبّك ..
– وهل الحبّ عندك يعنى الزواج ؟
واعتمد على كرسيّه وارتسمت على وجهه أمارات الجدّ الصارم
وقال :

– لا .. لا .. لا .. لا .. لا .. الحبّ شيء ضخم جداً . والزواج شيء
تافه جداً .. ولكن لا غنى للشئ الضخم عن الشئ التافه ..
الحبّ بلا زواج يعيش .. يعيش بقوة .. ويموت بقسوة ..
شهادة وفاة واحدة تقضى عليه . ولكن الحبّ مع الزواج لا يموت
.. شهادة ميلاد واحدة تضمن له الحياة أبدا ..

- تقصد الولد ..
- إنه سر الحياة ..
- لم يعد سرّاً مادمت قد بحثت به ..
- وضحكا .. وقال وهو ينظر الى أسنانها :
- إتنى أحبّ ضحكك .. كأنما أرى فيها الدنيا بشمسها
- وقمرها ، وهوائها ، ومائها ، ونهارها ، وليدتها ، ودفئها وبردها
- .. إنك تعبرين عن الحياة تعبيراً صادقاً بهذه الضحكة الطبيعية
- السهلة .. إتنى أحبّ الحياة حينما تضحكين .
- بدأت أظنّ أنك ستتنظم شعراً فى يوم ما ..
- ربّما ..
- إذن فانت تغرينى على عدم قبول الزواج ..
- لماذا ؟
- لأن الشاعر يقع فى حبّ كل النساء ما عدا زوجته ..
- الشاعر فقط ؟ ..
- وضحكت .. ومالت براسها الى الوراء .. واخذ يدها من
- فوق المائدة وقربها من شفتيه ، وقبلها ثم قال :
- هل وافقت ؟
- هل وافقت أنت ؟
- على أيّ شيء ؟
- على نقائصي ا
- كل منّا له نقائصه ..
- ولكنى لا أومن بالحبّ ..
- ونظرت اليه وسحبت يدها من يده ثم قالت :
- ولكنى قد أملتّ الحياة معك .. فأنا بطبعي سريعة الملل .
- لن تمليّ معى الحياة أبداً ..
- إنك مغرور جداً ..
- لست مغرورا .. ولكنها الحقيقة التى لا يصدقها الناس

إذا صدرت من صاحبها ..
وضحكت .. ثم قالت وهي تثبت فصيحها الماسيين في
عينيه :
- بل إنها الكذبة التي اصدّقها .. أو التي أريد أن
اصدّقها ..
وضحكا .. وأخذ يديها الصغيرتين في يديه .. وقبلهما ،
وقال لها في صوته العميق الدافئ :
- يا زوجتي العزيزة ..
ونظرت اليه في دهشة وقالت :
- بهذه السرعة ؟
قال وهو ينهض واقفا :
- أي سرعة ؟ ..
لقد ضيعنا وقتا طويلا في الطريق !!



الكوافير سوسو

كانت أصابعه الحشنة بعظامها العريضة البارزة وجسدها الاسمر الجاف تبدو نشازا بين خصلات الشعر الذهبي الناعم ، تجمع بعضها وتفرّق بعضها ، تلفّ بعضها وتفكّ بعضها . . . تنتقل في سهولة ويسر بحركات فنية خفيفة رغم شكلها الغليظ الثقيل الذي يوحي للرائي أنها لم تخلق لتمسك مشطا أو دبّوساً وإنما لتقبض على فأس أو ساطور . . . والشعر الذهبي بينها طيّع مستكين ، ينهدل تارة وينتصب تارة ، يتفرّق ويتجمّع . . . وينثنى وينفرد . . . حتى يتخذ في النهاية شكلا أخيرا وكأنه أصبح شعرا غير الشعر ، فيه تموجات جديدة بعضها يذهب الى اليسار وبعضها ينحرف الى اليمين ، فيه خصلة بيضاء ، وخصلة رمادية ، وخصلة كستنائية . . . وتقلّص الأصابع الغليظة متكوّرة محترسة تسويه من بعيد ، وتحتسّس الشعرات الرفيعة النافرة تضمّتها الى أخواتها وتعيد بلمساتها الخفيفة نظرة واثنتين وثلاثا على الشكل الأخير

•• مرّة من بعيد •• ومرّة من قريب ، من اليمين ومن الشمال
ومن الخلف ومن الأمام •• حتى تطمئنّ اطمئنانا كاملا فترتخي
عضلاتها وتبعد مستريحة راضية هانئة ••

كانت هذه الأصابع الغليظة هي كلّ شيء في حياة سعيد
أو سوسو كما كتب على لافتة محله ، وكما تناديه الأصوات
الرفيعة الناعمة ، يفكر بأصابعه ، وينظر بأصابعه ، ويشتم
بأصابعه ، ويعيش بأصابعه ••

لكنّه اليوم بدأ يحسّ أن له رأساً فوق عنقه تثقله افكار
كثيرة ••

سوسو !! ••

أخذ الاسم يدقّ في رأسه كمطرقة حادّة بينما راحت أصابعه
السميكة تسبح في رشاقة بين خصلات الشعر الناعم ••

سوسو !! ••

وقلب شفّتيه امتعاضا وهو يراجع اسمه بينه وبين نفسه
•• ما الذي جعله يسمّي نفسه سوسو !

ونظر الى المرأة فرأى صدره يغطّيه شعر أسود •• كثيف
•• وتأمّل قامته الطويلة العريضة ، وهبطت نظراته الى يديه
فرأى أصابعه الغليظة وهي تنتقل بغير وعي بين خصلات الشعر
•• غريبة •• كيف سمّي نفسه سوسو ؟ أو سمسح لنفسه
أن يسمّي هذه الجثة الضخمة المغطّاة بالشعر سوسو ؟ •• لماذا
لم يسمّ نفسه طرزان أو ضرغاماً •• أو أيّ اسم من تلك
الاسماء المذكّرة الحسنة التي تليق برجولته ، وتجبر الناس على
احترامها ••

نظر الى المرأة ثانية يتفقد نفسه ليكتشف أيّ شيء فيها
يشبه سوسو ••

ولم يجد شيئاً إلاّ ذلك القميص المشجّر الذي يبدو شاذّاً
على صدره العريض المشعر ••

وأحسنّ بالدماء تغلي في رأسه، وودّ لو خلع هذا القميص أو
مزقه ، وشطب اسم سوسو من اللافتة ..

- أوه ! .. حاسب شويه ياسوسو .. المكوه لسعتنى !
صاحت صاحبة الشعر الأسود الداكن بعد أن مسّت المكوة
في يد سوسو الثائرة طرف أذنها ..
لسعة خفيفة ، أصابت جسمها بشيء من الانتشاء ، فعادت
تتاوّه من جديد وهي تنظر الى سوسو نظرة نداء مكتوم صارخ
وقالت في ميوعة أنثويّة :

- أوه ! مش تحاسب عليّ يا سوسو ؟
ولم يردّ عليها سوسو ، لم يجد في نفسه رغبة للردّ على
هذا النداء المكتوم كما كان يفعل دائماً ويقول لها في ميوعة
مذكورة :

- بعد الشترّ عنك .. انشالله يا مدام أنا اللي أتلسع ..
ويتعمّد أن يلسعها مرة أخرى لسعة خفيفة لتنتفض على
كرسيّها وتنتشي أكثر وأكثر وتتاوّه أكثر وأكثر ..
كان يعلم أن أنوثتها الصائحة في المجتمع المحروم في حاجة
الى شيء من هذه الأشياء الصغيرة .. لسعة خفيفة بالمكوة ..
قرصة في الذراع .. نظرة اشتهاة خفيفة ، شدة شعسر
مقصودة ..

هذه الأشياء الصغيرة المباحة في المجتمع التي تنفّس بها
النساء عن ضغط غرائزهنّ .. أشياء صغيرة لا يطلق عنها
المجتمع الإشاعات ويرضاها الأزواج كلّ الرضا مادامت الزوجة
متصفّفة شعرها كما تفعل كلّ النساء .. إنّ المجتمع لا يرضى
عن الشذوذ أيّاً كان .. حتى ولو كان شذوذاً فاضلاً .. ويرضى
عن المعتاد حتى ولو كان خاطئاً ..

ثم إنّ هذه الأشياء الصغيرة تحدث داخل صالون الكوافير
سوسو .. وسوسو هذا لا يثير غيرة الأزواج .. يكفي أن

اسمه سوسو .. وأنه يلبس قميصاً مشجراً .. إنهم لا يعتبرونه
رجلاً ..

إنّ المجتمع ينظر الى الكوافير سوسو على أنه امرأة لها
شئب !

ووضع سوسو المكوة على النار وراح ينظر اليها وهي تلتهب
وتحمرّ .. وتذكرّ حادثة اليوم التي قلبت يومه الى جحيم
أشدّ ناراً من هذه النار التي يراها بعينه .. لقد قضى ست
سنوات أو أكثر وهو يصقف شعور النساء دون أن يشعر
بأي خزي أو عار .. وظلّ اسمه سوسو معلقاً على لافتة محله
سنوات وسنوات ، والنساء ينادينه سوسو .. ولا شيء في
ذلك يمسّ رجولته .. وماذا كان يعنيه من تلك الكلمة الجوفاء
الفارغة « رجولته » ما دام يكسب في اليوم عشرين جليها
تقريباً .. وله رصيد ضخّم في البنك يزيد عن رصيد أي بيه
محترم .. ثم إنه في النهاية يعود الى زوجته ليثبت لها كل
ليلة أنه رجل ..

لكنّ حادثة اليوم هي التي أصابت رجولته في الصميم ..
كان ذاهباً في الصباح الى محله ليفتحه ويبدأ عمله اليوميّ حينما
قابله في الطريق رجل يعرفه وهو صاحب البقالة الجديدة
الكائنة بجوار محله ، ووقف الرجل يتأمّل القميص المشجّر
ثم قال في ميوعة وهو يربت على كتفه كأنه يربت على كتف
امرأة : ازيك يا سوسو ! .. يا حنتوسو !

ولم يعرف لماذا غلا الدم في عروقه في تلك اللحظة .. لقد
ظلّت النساء ستّ سنوات كاملة ينادينه سوسو ويربتن على
كتفه لكنه لم يشعر في أيّ لحظة أنّهنّ يعاملنه كامرأة .. وبالعكس
كنّ يشعرنه برجولته دائماً .. ولكنّ هذا الرجل الصفيق ..
ينادبه سوسو .. ويعامله كامرأة ..

وانتبه سوسو من حمية الصراع في رأسه على ذراع ناعمة

بضّة تلتف حول عنقه وصوت ناعم يهمس فى أذنه :
- صباح الخير يا سوسو .. ادينى ميعاد عشان تعمللى
شعرى .. أجيلك امتى ؟

ونظر اليها سوسو فى استغراب .. إنها تلتصق جسمها
بجسمه بشكل يلفت النظر .. ولكنّ كل النساء داخل المحلّ
لا يلتفتن .. إن ذلك شيء عادىّ جداً عند الكوافير سوسو فى
نظر المجتمع .. وشيء غير عادىّ جداً فى حجرة تضمّ رجلاً
وامرأة متحابّين ..

وقال سوسو فى تأدّب : بعد ساعة يامدام ..
ونظرت اليه شزرا وقرصته فى أذنه وقالت وهى تتأوّد :
- هى .. مالك النهارده كده واخذها جد قوى .. هى ..
.. هى ..

وانطلقت جناجر النساء تقول جماعة : .. هى .. هى ..
مش عارفه سوسو ماله النهارده ؟ مبوز كده ليه ؟ شايل طاجن
سته .. الواد جد خالص .. آل يعنى .. ما تتعدّل يا واد يا
سوسو والا أجيلك وانت عارف أنا باعمل لك ايه ..
- ايه ؟ بتعمليلو ايه يا روحيه ؟

- هى .. هى .. هى .. هو عارف ده سرّ بينى وبينه ..
- هى .. لازم بتقرصيه .. أصله واد مضروب يموت فى
القرص !

قرص !؟

نفذت الكلمة من أذنه الى رأسه كطلقة المسدس .. إنّ
النساء تعودن أن يقرصنه من ذراعه .. من رقبته .. من أذنه
.. كيف سمح لهنّ بذلك ؟ كيف ترك جسمه نهياً لأصابعهنّ
النهمة الجائعة ؟

وأحسنّ سوسو بمرارة فى حلقة تشبه المرارة التى تحسّ
بها المرأة التى تترك جسدها نهياً لجوع الرجال يعبثون به

كيف شاهوا وأتى شاهوا ..
الى هنا لم يحتمل سوسو مزيداً من الأفكار والهواجس ..
الى هنا بلغت أعماقه قمة التوتر ، فانفجر في النساء كالضرغام:
- بس ! مش عاوز كلام ولا هاهاه .. انتم ايه ؟ جاينين
تعملوا شعركم والا جاينين ..
ولم يكمل .. كان على وشك ان ينطق بكلمة نابية فامسك
نفسه بصعوبة والعرق الغزير يتصبب من رأسه ورقبته ..
ونظرت اليه النساء فاغرات أفواههن .. مشدوهات .. وساد
بينهن الصمت لحظة .. ثم أفقن مفزوعات على شكله الغريب
الناثر ..

- هو جرى له ايه ؟
- يا نهار اسود باين عليه اتجتن ..
- اتجتن ؟
- اتجتن ؟

واندفعت النساء ملنحورات خارج المحل بشعورهن المنكوشة
وكانّ مارداً يطاردهن ..
وجلس سوسو في المحل الخالي ورأسه بين يديه .. ومن
حين الى حين يرفع رأسه وينظر الى شعر صدره العريض في
المرآة ثم الى أصابع يديه الغليظة الخشنة ويهتف لنفسه بصوت
مكتوم : أنا رجل .. أنا ضرغام .. أنا سبع ا
وبعد أيام قليلة كانت اللافتة المكتوب عليها «كوافير سوسو»
قد اختفت ، وظهر مكانها لافتة أخرى خشنة كتب عليها :
« جزارة سفيد الضبيع » ..



لن تجدي بالياى

الشخصيات :

اسامه محمود ، مهندس ناجح ، فى
الخامسة والثلاثين من عمره . . ليلي زوجته
. . مدرسة لغة عربية ، فى الثلاثين من
عمرها . .

المنظر :

صالة أنيقة فى منزل المهندس اسامه محمود ،
يجلس اسامة على أحد الكراسي الكبيرة . . يبدو
عليه الشرود والتفكير العميق ، يمسك رأسه بين
يديه . تدخل زوجته ليلي ومعها حقيبة وقد ارتدت
ملابس الخروج . . وحينما يسمع وقع قدميها ،
يرفع رأسه ويقول لها بصوت حزين :
اسامة - هل أنت جادة فيما قلت ؟

- ليلي - ألم نتفق على كل شيء .. وكتبت لك تنازلاً عن كل شيء ..
- أسامة - ولكن بقي شيء لم نتفق عليه بعد ..
- ليلي - ما هو؟
- أسامة - الجنين ..
- ليلي - « ساخرة » الجنين ا .. إنه داخلي انا بكل أسف ..
- وأنا حرّة فيه ، أبقيه أو لا أبقيه ..
- أسامة - « غاضبا » انا أبوه ومن حقّي ان امنعك ..
- ليلي - « تنظر اليه ولا تردّ » ..
- أسامة - « مستعظفا » ليلي .. اسمعيني .. لا تكوني حمقاء .. إنك لا تحبينني ولا تريدن الحياة معي .. هذا من شأنك .. ولكن هذا الطفل ابني انا ..
- ليلي - ولكن ألا ترى أنّه من الأصلح لثلاثتنا .. أنا وانت والطفل ، ألا يولد الطفل أبداً؟ .. كيف تكون حياته حينما يكبر ويعلم أنّ أمّه وأباه لا يعيشان معاً؟ ..
- أسامة - ولماذا أمّه وأبوه لا يعيشان معاً ؟
- ليلي - لأنّ أباه لا يفهم أمّه ..
- أسامة - ولكنّه يحبّها ..
- ليلي - إنه يحبّ نفسه ..
- أسامة - الأنتي أريد ان أوفر لك الراحة .. ماذا تاخذين من هذا الجري والتعب كل يوم .. عشرين جنيهاً كل شهر ؟ سأعطيك هذه العشرين جنيهاً في يدك كل شهر ، ولا داعي أبداً لأن تكون زوجتي موظفة حكوميّة تلهث وراء الاتوبيس كل صباح ..
- ليلي - إنك لا تفهمني .. انا لا اعمل من أجل العشرين جنيهاً .. إنني أحبّ عملي ..
- أسامة - عملك ؟ إنّ عملك الأساسي في الحياة هو بيتك ..

هو زوجك .. هو أنا ..

ليلي - انت ؟

أسامة - نعم أنا .. ألا أكفيك؟!

ليلي - ولكنك لا تحقق ذاتي .. إنك تحقق ذاتك أنت ..
وما أنا إلا وعاء يحمل أطفالك الذين تسميهم باسمك ، ويصنع
أكلك الذي تهضمه وتحوله الى فضلات ، إننى أعيش من أجل
وجودك .. إن وجودي أنا لا وجود له ..

أسامة - كيف ذلك ؟ أنت زوجتي .. حرم المهندس أسامة

محمود ..

ليلي - حرم المهندس أسامة محمود ا حتى اسمي تلغيه
وتضع اسمك على غلافي .. يا لك من أناني .. « نائرة » لا
.. لا أريد هذا .. لا أريد هذه الحياة .. لست فى حاجة اليها ..
استطيع أن أعيش وحدي ، وأنفق على نفسى ، صحيح أنه لن
يكون بيتاً كبيراً كهذا ، ولكنه سيكون بيتي أنا .. أضغ
عليه اسمي : « ليلي صادق » .. سيكون بيتاً صغيراً بسيطاً ،
ولكني سأحبه .. لأنه سيكون ملكي ، وسأعيش فيه كما أريد
.. سأكون حرة .. لست تابعة لأحد ، سأحقق ذاتي وأشعر
بفرديتي .. ويمكننى أن أستاذج « خادمة » صغيرة تغسل
ملابسي وتصنع طعامي .. وتقوم مقام الزوجة - كما يراها
الرجال - وتتولى هذه الأعمال التافهة الجامدة ، التى لا يمكن
لأي إنسان ذكي أن يجعلها حياته ..

أسامة - لقد أفسدك التعليم والعمل لو لم تتعلمي وتوظفي
لما كان فى إمكانك أن تتركي هذا البيت ، ولعشت معي راضية
قاعة .. لا يمكن أن تسير الحياة وقد أصبحت النساء رجالات ..
ليلي - « ساخرة » النساء رجالات .. ومن قال إن المرأة
تصبح رجلاً اذا تعلمت ، وعملت وأصبحت إنساناً له كيانه
واسمه ؟ هل خلقت المرأة لتطبخ وتغسل ؟

أسامة - خلقت لتكون أمًا . . الرجل لا يمكنه أن يلد أو يرضع الاطفال . . إن الطبيعة خلقت للمرأة رحماً ليحمل داخله الجنين . . وخلقت لها ثديين ليرضع منهما . لماذا لا تحاكي الطبيعة لأنها خلقتك امرأة ولم تخلقك رجلاً؟

ليلي - إنني لا أريد أن أكون رجلاً . . لقد خلقت امرأة ولا أشعر بأي نقص في طبيعتي . . إن الرجل هو الذي أدخل في نفس المرأة أنها أقل منه ، وأضعف منه ، وقال لها إن في داخلك رحماً . . والطبيعة أرادت هذا النقص فيك . . ولكن الطبيعة بريئة . . هذا الاختلاف لا يعني أن المرأة أضعف من الرجل ، وأقل منه . . وأن له الحق في أن يفرض عليها سيطرته وحمايته . . الطبيعة تنطق بأن المرأة إنسان كالرجل لها رأس مثل رأسه ، ومخ مثل مخه ، ويدان مثل يديه ، ورجلان مثل رجليه وكتفان مثل كتفيه ، وقلب مثل قلبه وكبد مثل كبده . . وإن الحمل والولادة وظيفه واحدة من وظائف كثيرة يقوم بها جسم المرأة . . لماذا تتهم المرأة بالضعف حينما يخرج رحمها محتواه ولا تتهم الرجل بالضعف حينما يخرج أمعائه محتوياتها مثلاً . . إن الفلاحة تلد طفلها في العراء . . وتضعه على رأسها في القفة ، وتواصل عملها في الحقل ، تماماً كما ينتحي زوجها وراء شجرة ليقضي حاجته ثم يعود إلى مواصلة عمله . . لماذا إذن يستعبد الرجل المرأة ويلغي ذاتها لتصبح تابعة له طول العمر؟ . .

أسامة - إن منطقتك عجيب . . لم أسمع في حياتي امرأة تتكلم كما تتكلمين . . إن المرأة ضعيفة ، حتى ولو لم تحمل وتلد . . إنها امرأة . . جسمها ضعيف . . وعواطفها متقلبة تطفئ على تفكيرها ، إغراؤها سهل . . إنها في حاجة إلى رجل يقودها . . إلى رجل تتبعه . . ومن تتبع المرأة إذا لم تتبع رجلاً؟

ليلي - وهل لا بد للمرأة أن تكون تابعة لأحد . . . إلا يمكن أن تكون مستقلة . . . إن منطقك يشبه منطق الإنجليز حينما احتلوا مصر . . . قالوا إنها ضعيفة وتحتاج الى حماية . . . ولكن حمايتها ضد من ، وهم الذين يعتقدون عليها ؟ حمايتها ضد أنفسهم . . . إن المرأة ليست ضعيفة كما تقول . . . عواطفها لا تغلب تفكيرها ، وإغراؤها ليس سهلا . . . إن المرأة تعرف كيف تحكم عواطفها . . . وغرائزها طوال حياتها . . . بعض النساء يعشن في عذرية دائمة ولا يتكلمن . . . وبعض النساء يطوين قلوبهن على مشاعر لا تجد طريقا الى النور ، والمرأة تقاوم الرجل دائما . . . والرجل يلهث وراء المرأة دائما . . . وتقول إن المرأة ضعيفة لأن اغراءها سهل . . . ما بالك إذن بالرجل الذي في غير حاجة الى إغراء على الاطلاق . . . إن الرجل هو الذي في حاجة الى حماية !

أسامة - ولكن القوانين كلها تفرض حماية الرجل للمرأة . . . فهو الذي يختارها . . . وهو الذي يتزوجها . . . وهو الذي يطلقها . . . وهو الوصي عليها لا يمكن أن تخالفه . هذه هي القوانين التي وضعتها الطبيعة ، وتسير عليها كل النساء .
ليلي - الطبيعة لم تضع قوانين . . . الرجل هو الذي شرعها كما يهوى . . . هو الذي شرع سيادته . . .

أسامة - ولكن المرأة تحب من الرجل أن يكون سيدها . . . إنها تعشق وضعها عند قدميه . . .
ليلي - المرأة لا تعشق ذلك . . . لقد ربّوها على أن الرجل هو السيد . . . ولقنوها وهي طفلة أنها أقل من أخيها الولد . . . وأن أمها أقل من أبيها . . . وقتلوا شخصيتها ، وفرديتها ، وأعدّوها لمتعة الرجال . . . ماذا تنتظر من امرأة تتربى هذه التربية غير أن تتزيّن وتتعطر وتلك ساقها وتزحف الى قدمي الرجل ؟ . . .

أسامة - إنَّ المرأة الطبيعيَّة هي التي تفعل ذلك .. ماقيمة.
المرأة في الحياة اذا لم تجذب الرجل إليها ؟ وما قيمتها إذا لم
تتزيّن وتتعطر .. أم أنك تريد أن يتزيّن الرجل للمرأة ؟
ليلي - وهل من الضروريّ أن يتزيّن أحدهما؟ .. لماذا لا يكون
كلّ منهما على طبيعته .. لا أدري لماذا تضع المرأة على وجهها
تلك المساحيق البيضاء ، والحمر ، والخضراء .. إنها تفسد
ملامح الوجه ، وتخفي لون البشرة الطبيعيّ الذي يعكس النفس
والروح ، إنني أرى وجوه النساء في الشوارع فيخيّل إليّ أنّه
وجه واحد مكرّر .. كلهنّ متشابهات .. كأنهنّ يلبسن وجوهها
صناعية في حفلة تنكرية .. إنني لا أنتمي الى هؤلاء النساء
.. أنا لست منهنّ !

أسامة - بالطبع لست منهن .. فأنت لست امرأة . ولكن
إذا لم تكوني امرأة فماذا تكونين .. رجلاً ؟
ليلي - لست رجلاً .. ولست امرأة ، كتلك التي تسمّيها
أنت امرأة .. إنني لا أعترف بتسميتك .. لأنني امرأة في
أعمالي ، ولكّني من نوع لا تعرفه .. ولا تستطيع أن تعرفه
.. إنه يبدو لك غريباً شاذاً كأنه جنس ثالث .

أسامة - امرأة .. إنني لم أر في حياتي امرأة ولا رجلاً
مسترجلاً مثلك .. وبالطبع الرجل هو الذي يحكم على أنوثة
المرأة ..

ليلي - « ساخرة » أعتقد أنّ امامك خمسين سنة من القراءة
والفهم حتى تتمكن من أن تحكم على أنوثتي وتفهمها ..
أسامة - ها .. ها .. من قال إنّ الأنوثة في الكتب .. إنها
إحساس فطريّ يشعر به الرجل نحو المرأة .

ليلي - كلّ إحساس فطريّ يحتاج الى التهذيب ، والدراسة
والتطوّر .. إنّ الرّجل الذي يعيش في الغابة يفهم أنوثة المرأة
فهماً يختلف عن الرّجل الذي يعيش في نيو-يورك .. إنّ

الأنوثة منذ خمسين عاماً كانت تختلف تماماً عن الأنوثة هذه الأيام .. ثم دعني أسألك أولاً .. ماهي الأنوثة ؟

أسامة - الأنوثة .. هي الجمال .

ليلي - الجمال ؟ .. أيّ جمال ؟

أسامة - جمال المرأة ..

ليلي - أيّ شيء في المرأة ؟

أسامة - جسمها ، ووجهها ..

ليلي - جسمها ووجهها ؟ هل هذا هو الجمال .. إنّ جسم المرأة ووجهها ليسا إلاّ جلدها الخارجيّ ، تستطيع أن تغيّره كالخرباء ، مرة خضراء على العشب ، وأخرى صفراء على الرمال .. إنّ الجمال في رأيك يوجد في علب أنيقة في الصيدليات ، ومحلاتّ الخردوات ويستورد لنا من ماكس فاكثور وكريستيان ديور ..

أسامة - أين يوجد الجمال إذن ؟

ليلي - تحت الجلد .. في الدم .. الدم يجسري في كلّ كيان المرأة ويغذي قلبها ومخّها .. الدم يرسم روح الجسم ويحدّد تعبيره وأحاسيسه ، ومفاهيمه ، وملامحه ..

أسامة - وإذا كانت الملامح قبيحة ؟

ليلي - القبح ليس في الملامح .. القبح في الدم .. تصوّر امرأة عيناها واسعتان برّاقتان ولكن نظراتها تشعّ الكراهية أو الغيرة أو التكلف أو البرود .. هل تقول إنّ عينيها جميلتان ؟ إنّ جمال العينين يكمن في جمال النظرة .. النظرة التي تعبّر عن المعنى الجميل ، كالحنان ، أو الحبّ ، أو الرقة ، أو التسامح .. النظرة الدافئة الطبيعيّة التي تشعرك أنك أمام عينين نابضتين بالحياة يجري فيهما دم ينفع ، ويتأثر ، ويعكس صور الحياة كلها ، وليستا عينين متشنجتين تروحان وتجيئان كقطعتي زجاج ..

أسامة - الواقع أنّني لم أدرس علم النفس ، ولا علم الأرواح

٠٠ إننى أحكم على الناس بمظهرهم ٠٠ ليس لىدى وقت لأن
 اغوص فى الأعماق ٠٠ إنى أضيع حياتى لو أننى فعلت ذلك ٠٠
 لىلى - بل إنك تضيع حياتك ، لأنك لاتفعل ذلك ٠٠
 أسامة - اسمعى يا لىلى ٠٠ لقد ضقت ذرعا بهذه المناقشة
 إننى أحبك لكنك تعملين على القضاء على هذا الحب ٠٠
 لىلى - حبّ ؟ ٠٠ إنك لم تحبّنى قطّ ٠٠ لقد أحببت امرأة
 غيرى تلبس جلىدى ٠٠٠
 أسامة - أنا لا أفهم هذه الألغاز ٠٠ أنا رجل مهندس ٠٠
 لا أفهم إلا فى الهندسة ٠٠ ولكنى لا أمانع فى أن تكون هوايتك
 اعتناق هذه الألغاز ٠٠ على ألا تتعدى حدود النظريّات ٠٠
 أتعرفين ؟ لا تتعدى الكلام ؟ والآن ٠٠ ماذا تنوين عمله ؟ ٠٠
 هل مازلت مصرة على الطلاق ؟
 لىلى - طلاق ؟ ٠٠ تلك الورقة التى يكتبها المأذون لنصبح
 غرباء ٠٠ ولكن ألم تشعر أننا كنا غرباء ونحن فى سرير
 واحد ؟
 أسامة - « يشير الى بطنها » ولكنّ هذا الجنين يشهد على أننا
 لم نكن غرباء ٠٠
 لىلى - الجنين لا يشهد على شيء إلا على الزواج ٠ إننى أحسّ
 أنه ليس طفلى ٠
 أسامة - ليس طفلك ؟ ٠٠ ماذا تقولين ؟
 لىلى - لست إلا وعاء يحمله ويغذيه ٠٠ إنه قطعة غريبة
 عني ٠٠
 أسامة - لقد فقدت عقلك بلا شكّ ٠٠ أنت فى حاجة الى
 طبيب ٠٠
 لىلى - « تمسك رأسها بين يديها وتنتحبب » أسامة يقترب
 منها ببطء ويضع يده على كتفها ٠٠ لىلى تستمرّ فى النسيج ،
 أسامة - لىلى ٠٠ لىلى ٠٠ ما الذى أصابك هذا الصباح ٠

لم كل هذه الثرثرة ؟ لأنني طلبت منك أن تترك العمل ؟
كفى . كفى . لا تبكي . اذهبي الى العمل ولا داعي لكل
هذه الثرثرة .

ليلي - « ترفع رأسها وتنظر اليه في دهشة » ولكنني .
أسامة - « ساخرا » : لا تحبينني ا ولكنني أحبك .
ليلي - كيف ؟

أسامة - إنني أحبك ولا أطلب منك أن تحبينني . ويكفيني
أنك لا تحبين أحداً غيري .
ليلي - ولكنني قد أحبّ أحداً غيرك .
أسامة - لا أظن .
ليلي - لماذا ؟

أسامة - لأنك لن تجديه . لن تجديه يا ليلي .
(يقترّب منها ، ويأخذ الحقيبة من جوارها ، ويتجه الى داخل
البيت . تبقى ليلي وحدها في الصالة . تضع رأسها بين
يديها وتبكي)

« يسدل الستار »



ليست عذراء

أقفل الحاجّ بدوي دكانه بالقفل ، ونفض يده من التراب ثم أدخلها في جيبه وأخرج قرن قرنفل وضعه تحت ضرسه الذي يؤلمه من ثلاثة أيام ، ولم يخرج ورقة النشوق كعادته ليشمّ ويعطس ، فقد كان مهموماً حزيناً .. نفسه مصدودة عن النشوق وعن كل شيء ..

حتى أنه حينما مرّ في طريقه على قهوة بيومي التي يجلس عليها كلّ ليلة مع الحاج محمد ليشرب الجوزة ويدردش ، ويراقب الستّ حمدية وهي تجلس وراء الشيش الموارب .. وعلى رأسها المنديل الحريري الأحمر الذي يلتهم حاجبها الأيمن ويترك حاجبها الأيسر متدلّياً على عينيها العسلية المنكسرة . لم يستطع الحاجّ بدوي أن يعرج على القهوة ولا حتى أن يلتفت إليها ، بل مرّ من بعيد وهو يكبس عمامته على رأسه لتخفي جبهته ، إنه لا يريد أن يراه أحد .. ولا أن يرى هو أحداً .. يكفي ما سمعه من الناس ، الذين ليس لهم عمل منذ ثلاثة أيام إلاّ الحديث عن الحاجّ بدوي .. وشرف الحاجّ

بدوي .. وسيرته على كلّ لسان منذ ليلة الفضيحة .. ولولا
تجارته وحاجته الى القروش التي يكسبها من بيع البهارات
والقرنفل والجنزبيل .. لولا ذلك لبقى في بيته لا يبرحه
أبداً ..

ووصل الحاج بدوي الى بيته وهو يلهث ، إنه لم يتعوّد المشي
السريع هكذا ، وأخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب ، ودخل
حجرة النوم .. وأخذ يخلع ملابسه في ثناقل ثم وثب على
السرير .. وحينما وضع رأسه على الوسادة سمع شخير
زوجته الخافت وهو يعلو على أنفاسها فالتفت اليها وهي غائبة
كالمتى في نوم عميق ، وأخذ يتأمل بشرتها ذات التجاعيد
وشفتيها الياستين .. ومصمص شفتيه بازدياء ، وأعطاهما
ظهره وهو ينفخ ، وغطّى رأسه باللحاف لينام .. لكنّ صورة
سعدية بملابس العرس ظهرت أمامه وهي تجلس في وسط
كوشة من البنات والازهار وعلى رأسها تاج أبيض . والعريس
ببذلته الكحلي يروح ويحيي بين الناس .. والناس يبخلقون
في الناس ويشربون الشربات بالاربعة أكواب .. والصوان
الفخم مقام .. وصوت الميكروفون يذيع الأغاني والزغاريد
وإيقاع الرقص والصاجات .. وحيّ السيدة زينب الذي يبيت
كلّ ليلة بعد صلاة العشاء ساهراً في نوافذه يطلّ على ذلك
العرس النادر ويحكى قصة العريس والعروس مئات المرات .

وقلب الحاج بدوي فجأة وجهه ناحية زوجته .. ولعت
عيناه الضيقتان كعيني الصقر وهو يتأمل عظام فكّيها البارزة
المدبّبة .. لأنه لا يذكر أن رأى لزوجته وجهاً غير هذا الوجه
.. ولكم دعا في كل ليلة بعد زفافه على أم يوسف الخاطبة
.. ولعنها ولعن أجدادها وبصق عليها وعليهم .. عشر سنين
مضت وهو في كلّ ليلة يصبّ اللعنات على رأسها كلما رأى
وجه زوجته ..

وكانت سعدية طفلة في العاشرة تجري وتلعب .. وأحياناً
تقفز فيرى ساقها وفخذيها السمينتين .. ولم يدر لماذا كان
يطيل النظر إليها .. وحينما كان يستدرجها الى « البلكونة »
ويجلسها الى جواره .. ويمرّ بأصابعه على ساقها يتحسّس
بشرتها الناعمة كأنه يقول لنفسه : عيب يا حاجّ بدوي .. ده
انت خالها .. وبتربّيها بعد موت أبوها .. عيب يا راجل ..
ياللي حاجج بيت الله ..

لكنه كان لا يستطيع أن يقاوم هذه الرغبة الملحة كلما رآها
وهي تقفز .. فرق كبير بين ساقها الناعمتين وبين ساقيّ
زوجته الرفيعتين اليايستين ..
وأحياناً حينما كان يفقد السيطرة على رغبته يضمّها الى
صدره .. ويداعب بشاربه الكثيف وجهها الناعم النضر ولا
يتركها إلاّ بعد أن تخنقها رائحة التبغ في أنفاسه فتصرخ ..
أو تعضّ أصبعه ..

وفي مرة .. لم يكن بالبيت سواها .. وكان مستلقياً على
السريّر يعرّبد بأنفاسه مع الجوزة ويراقب سعدية وهي تلعب
كعادتها، وأحسّ برغبة جارفة ، وشعر كأنّ دمه يغلي في عروقه
.. ولم يستطع المقاومة .. وقام إليها وحملها .. ووضعها
على السريّر .. وأحسّ الحاجّ بدوي بالعرق يتصبّب من جسمه
فأزاح عن نفسه اللحاف ، وتذكّر منظره وهو يلبث ثياباً
ويضع عمامته على رأسه وينزل مهرولاً الى السوق .. ثم يعود
إليها فيجدها كفتت عن البكاء .. وحينما يعطيها الحلوى
الكثيرة تبتمسم في سداجة وتنسى كل شيء .. وأحس بالراحة
.. إنّها لم تفهم شيئاً ، لن تقول لأُمّها ..

وجفّ عرق الحاجّ بدوي فأحسّ بالبرد ، وسحب اللحاف
ليغطي أنفاسه ، فتعرت زوجته وظهرت ساقها الرفيعتان
فنظر إليها بضيق .. إنه يكره زوجته من أول ليلة ..
ولقد كرهها أكثر بعد حادثة سعدية .. وأحس بالندم ..

وأصبح يفرّ من البيت الى القهوة ليشرب الجوزة ويدردش مع
الحاجّ محمد في الوقت الذي يبخلق فيه الى « سيقان » النسوة
وهن يجتزن الشارع أمامه .

وانتشلته من ضياعه الستّ حمديّة . تلك الأرملة السمينيّة
التي تسكن في مواجهة القهوة ، وكان يراها وهو يجلس على
القهوة تنظر بعين واحدة من فرجة الشباك ويرى يديها
البيضاوين السمينتين وهي تمسك بضلفة الشيش ، وساعدته
الستّ حمديّة في التعرف عليها . . وفي زيارتها . . وفي كل
شيء . . واستعاض بها عن زوجته « الكركوبة » ونسى بها
سعديّة . .

لم يعد يثيره منظر ساقها وفخذيها وهي تقفز . . حتى
بعد ما كبرت واستدارت وبرز صدرها بشدّة لم يشعر نحوها
بأيّ شيء ، لولا تلك الحادثة المؤلمة التي وقعت منه . . والتي
كانت تطفو على ذاكرته كلما فكّر في زواجها . . ولقد اختار
لها حسين أفندي عريساً لأنّه رجل طيّب . . كان المرحوم أبوه
رجلاً غيبياً ولا يمكن لحسين أفندي أن يرث الذكاء عن أمه . .
لأنه فشل في تجارة الطعميّة بعد أبيه . . ونظره ضعيف . .
ولم يصلح إلاّ في وظيفته الحقيرة التي توسّط له فيها أحد
أقاربه . .

وانتفض الحاج بدوي في فراشه ، وعاد الى ذاكرته صوت
حسين أفندي ذلك الرجل الغبيّ الطيّب كما كان يظنّ ، وهو
« يجعر » بأعلى صوته ويسبّ الشرف ويبصق على العرض . .
ويصرّ على ان يطلق « بالثلاثة » قبل ظهور الشمس وأن يسترده
مهراً وكل هداياها . . وأن يتنازلوا عن المؤخر وعن النفقة وأن
ينهوا الموضوع في السرّ وإلاّ يجعلهم مثله الحى . .
وأحسّ الحاج بدوي بنار تنقد في بدنه فقذف اللحاف عن

جسده ورماء على جثة زوجته وقام يتمشى فى الحجرة . .
لقد أصبحت رقبتة فى « قصر » السمسة . وهو لا يستطيع
أن يرفع رأسه فى الحي . . ولا أن يجلس على القهوة ، ولا حتى
أن يرى الست حمدية ، إنه الآن فى نظر الناس كلهم رجل بلا
شرف حتى يغسل شرفه ، والرجل عندهم لا يغسل شرفه الا
بالدم . .

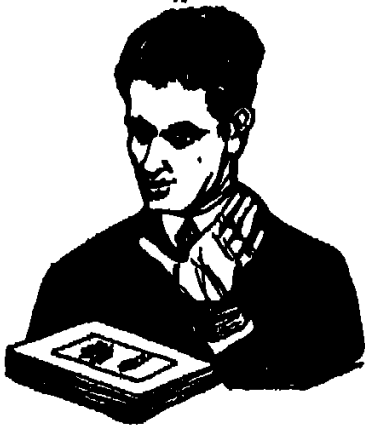
وصعد الدم الى وجهه ، إن سعيدة تنام الآن فى حجرتها ولا
يفصله عنها سوى باب غير مقفول . .
وتصوّر نفسه مرة أخرى الحاج بدوي الذى يمشى رافعاً
رأسه ، ويجلس على القهوة . . مع الحاج محمد يشدّ أنفاسه
مع الجوزة . . ويدردش . . وكلّ رجل يمرّ عليه يقرئه السلام
. . والست حمدية . . آه . . مرة أخرى يذهب اليها وتأخذه
بين أحضانها الدافئة . . ثلاثة أيام مضت وهو محروم من
كلّ هذا . .

ووضع الكوفية على رقبتة وأدخل « المطوة » فى جيبه ، ثم
مشى على أطراف أصابعه ودفع باب سعيدة ببطء . .
وفى الظلام الدامس أخذ يتحسّس بيديه حتى وصل سريرها
. . كان كل جسمه يرتعد وأنفاسه تتلاحق بسرعة وكاد يفرّ
من الحجرة بسرعة لولا أنه تخيل سرير الست حمدية وهى راقدة
عليه تفتح ذراعيها لأحضانها ، وأهبه الحماس فأخرج « المطوة »
من جيبه ومدّ يده على السرير يتحسّس رقبة سعيدة ولكنّ يده
لم تصل الى شيء . . فاستعان بيده الأخرى . . ولم يعثر فى
الظلام عليها . . ففتح النور ونظر على السرير ليجده خالياً .
ونظر تحت السرير . . وفى الدولاب ووراء الشماعة . . لكن
سعيدة لم تكن هناك .

وعاد الى حجرته والعرق يتساقط من كل جسمه ، وزحف
على السرير بجوار زوجته . . لقد هربت سعيدة قبل أن يقتلها

•• قبل أن يثبت للحَيِّ أنه رجل يغسل شرفه بالدم •• كان
يجب أن يقتلها أوّل ليلة •• سيقولون إنّه جبان • لن يستطيع
الجلوس على القهوة •• لن يرفع رأسه بين الناس • لن
يستمتع بأحضان الستّ حمديّة الساخنة •• وجحظت عيناه
في غيظ وحيرة •• وكانت « المطوة » لا تزال في يده ورأى
زوجته راقدة كأنّها ميتة ••

ولم يدرك لماذا أخذ يبخلق في رقبتها الرفيعة المعروقة وهي
تصعد وتهبط مع شخيره •• واهتزّت « المطوة » في يده وخيّل
اليه أنه رفع يده بها وأستظها على رقبتها •• وانفجرت دماؤها
في وجهه •• واختلطت بعرقه •• لكنّه كان لا يفعل شيئاً ••
وترك « المطوة » في يده وأعطاها ظهره •• وحينما أغمض
عينيه وراح في غيبوبته ظهرت له صورة سعيدة •• طفلة
صغيرة في العاشرة تمسك صرة ملابسها وتسير في الشوارع
ليس لها ماوى •• وفتح عينيه •• وأحس بشيء ساخن سخونة
الدم يسيل على وجهه •• وسمع صوت نشيجه هو يعلو ••
ويعلو •• على صوت أنفاسه •



لهير وفش .. لهير وفش

كان ذلك منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا ، وكان مدرّج على باشا ابراهيم غاصّاً بالطلبة على سعته الكبيرة ، فهو أكبر مدرّج بكلية الطبّ ، لكنه أصبح يضيق عاماً بعد عام بذلك العدد المتزايد من طلبة الطبّ . فكلّ طالب بالثانوي يريد كلية الطبّ . . . ويحلم بكلية الطبّ . . . ويرى نفسه في منامه وقد أصبح من هؤلاء السعداء الذين ينتمون الى كلية الطبّ ، ويراهم كلّ يوم وهم يركبون الاتوبيس من محطة القصر العيني ، وعلى أيديهم معاطف بيضاء متنسخة تفوح منها رائحة غريبة نفاذة لا بد أنها رائحة الجثث التي يشرّحونها ، ويضحكون في كبرياء ، ويتكلّمون بصوت عالٍ ، ويتبادلون كلمات بالانجليزية ترنّ في قوّة وخيلاء . . . لا شك أنها أسماء الأمراض التي يكتشفون سرّها الدفين أو أسماء ما يشرحون من جسم الإنسان ويقفون على كلّ ما ينطوي عليه ذلك المخلوق العجيب . . . وينادي كلّ منهم الآخر قائلاً : « دكتور » . . . ويتساءل طالب الثانوى بينه وبين نفسه إن كان « دكتور » تصغيراً أم

تكبيراً للقب « دكتور » .. على أيّ حال فإنّ للكلمة وقعاً جميلاً في نفسه ، يحسّ فيها شيئاً من الامتياز عن الناس ويرى الإعجاب بها في عيون ركّاب الاتوبيس .. ويبيت يحلم أنه حصل على الثانوية ، ودخل كلية الطب ، وركب الاتوبيس ، وفاحت رائحة نفاذة من معطفه ، ونطق بكلمات إنجليزية ساحرة .. وزميل يناديه يا « دكتور » .. ونظرات كلّها إعجاب تتّجه إليه ..

وهكذا كانت الأحلام تتكاثر ، وتتكاثر معها وفود الطلبة الى كلية الطبّ ، حتى بلغت الدفعة الواحدة في أيّامي الخمسمائة أو تزيد ، لا يعرف الطالب زميله ولا يمكن أن يعرفه ، ولا يعرف الأستاذ الطالب ولا يمكن أن يعرفه .. ويقضي الطالب ستّ سنوات ونصفاً في الكليّة على أقلّ تقدير ، ثم يخرج منها ولا يكاد يعرفه أحد اللهم الا بعض الفرّاشين الذين كان يرشوهم ليسرقوا له ذراعاً أو رجلاً أو جمجمة ، هذا اذا كان طالب طبّ مثالياً في نظر حرس الكليّة على الاقل . أما اذا كان طالب طبّ فاشلاً أصابه الملل من الجري بالمشروط وراء الشرابين والأوردة والشعيرات الرقيقة فاتخذ لنفسه هواية أخرى غير التشريح .. وهي الخطابة .. ولم يجد موضوعاً يمارس به هوايته الا السياسة .. سياسة البلد . ونظام البلد .. والاستعمار والانجليز .. و .. و .. فاذا ما انتهت مشاكل البلد أو خيّل له ذلك تحوّل الى سياسة البلاد الأخرى .. فلسطين الشهيدة .. و .. و .. ويضرب بقبضة يده على منضدة الأستاذ ويخطب بصوت جهوريّ تهتزّ له جدران مدرّج على باشا ابراهيم الشاهقة ، أما الطلبة فلا يكاد يسمعه أحدهم ويعتدونه شرّاً لا بدّ منه كلّ صباح .. أما حرس الكلية فهم يولون موهبته الخطائيّة أهميّة أكثر .. ويدوّنون اسمه في سجلّاتهم ، ويحفظون ملامحه في صورة شمسيّة ، ويتعقّبون

خطاه داخل الكلية .. فى المعامل .. والمدرجات ودورات المياه .. ولا شك أن هذا العمل مفيد الى حد ما . فهو يخفف فراغهم الموحش بعض التخفيف ويرضى غرور الطالب الفاشل بعض الرضا ..

وفى ذلك اليوم كان المدرج بمقاعدہ وأرضه ونوافذه مختفياً تحت أجساد الطلبة المتلاحقة .. وزفيرهم الساخن يرفع حرارة الجو فنصبح فى الصيف ونحن فى الشتاء ، وكنت البس معطفاً سميكاً كاللحاف لم أجد بداً من أن أخلعه وأضعه فى حجري ، وهو المكان الوحيد الذى بقي خالياً فى المدرج . وكان الصخب يملأ المدرج والأصوات العالية الغليظة الجشاء تهز طبله أذني الرقيقة فتكاد تمرقها .. ولم أكن أدري مصادر كل هذه الأصوات المتباينة المتنافرة ، لكنني كنت أرى المدرج وقد امتلأ بأفواه متلاصقة تتسع وتضيق ، وتضيق وتتسع ، فى سرعة عجيبة تسبق العين .. وهناك على مرمى البصر وقف مكان الأستاذ طالب أعرفه .. والحق أنني لا أعرفه شخصياً لكنني أستطيع أن أتعرف على أنفه من وسط آلاف الأنوف .. فهو خطيب الدفعة .. وكل دفعة لها خطيب على الأقل . وكان لدفعتنا خطيب واحد .. ولهذا فقد كانت فرقة حسنة السمعة .. يتنبأ لها حرس الكلية بالنجاح المطرد .. هذا اذا لم يزد عدد الخطباء أثناء الدراسة الطويلة الشاقّة .. وكثيراً ما كان يزداد ..

وكان الخطيب واقفاً كالضرغام ، يهدر ويزبد ، وكلماته النارية تندفع فى أذني كطلقات الرصاص ، لا تلبث أن تستقر فى رأسي وتفرقع : « أيها الشباب .. أيها الأبطال .. هذا هو يومكم .. الوطن يناديكم فلبّوا النداء ! أيها الشباب .. ليس مكانكم هنا فى المدرجات .. وليس عملكم التشريح والمرورات .. ولكن مكانكم هناك .. فى ساحة القتال . فى

أرض القنال ! .. هيا أيها الشباب ! دعوا المشارط والمحاضرات
 .. ودعوا الكتب والمذكرات .. هيا انطلقوا ! الى الميدان ..
 الى الميدان .. الى الميدان ! الى الكفاح الى الكفاح ! .. الحرية
 أو الموت .. الاستقلال أو الهلاك ! .. ايها ال .. »
 وظهر الأستاذ في فتحة الباب ، واختفي الخطيب ، وانقطع
 الهدير .. وتوقف الصخب .. وثبتت الأفواه المتحركة ..
 وساد السكون في المدرج . ووقف الأستاذ بقامته القصيرة
 النحيلة ينظر من خلال نظارته السميكة الى الطلبة في تحقّز
 .. كأنه يتوقع هجوماً من أحد .. أو كأنه يسأل جسمه
 بنظرات قويّة قد تخيف تلك العيون الشاحصة اليه من كل
 شبر في المدرج .. وظلّ الأستاذ دقيقة أو دقيقتين متسلّحاً
 وراء نظارته الغليظة ، والصمت التام يشمل المدرج .. والطلبة
 يجلسون متأهّبين مترقّبين ، أقلامهم في أيديهم ، ومذكراتهم
 مفتوحة ، وأنفاسهم مكتومة ، وأذانهم مرهفة تنتظر أول درة
 تسقط من بين شفّتي الأستاذ الخطير ..
 وأخيراً انفرجت الشفتان .. لا عن درة إنما عن قنبلة ..
 « هيتروفس .. هيتروفس » .. وتشتتت نظرات الطلبة
 يحملقون في الأستاذ .. وساد الصمت ثانياً . ثم انطلق
 الصوت الرفيع الحادّ مرة أخرى كطلقة المدفع : « هيتروفس .
 هيتروفس » وتصلبت رموس الطلبة وهي مشدودة نحو الاستاذ
 بلا وعي وكأنه ألقى في وجوههم بتعويذة من التعاويذ أو طلسم
 من الطلاس .. وارتخت عضلات الأستاذ المتحفزة .. لقد
 ملك زمام الطلبة وسيطر عليهم . ونظر اليهم في كبرياء وزهو
 وراح يتمشّي من اليمين الى اليسار .. ومن اليسار الى اليمين
 واضعاً يده في جيبه .. ثم استدار في عظمة وأمسك بأطراف
 أصابعه قطعة من الطباشير كأنه يمسك صرصاراً أو خنفساء ،
 وكتب على السبورة بالانجليزية : هيتروفس .. هيتروفس .

ثم استدار الى الطلبة ونفض يده من الطباشير ووضعها في جيبه وأخرج ورقة مطوية فضّها وبدأ يقرأ .. وانكفات رهوس الطلبة يدونون محاضرة اليوم في علم الطفيليات .. وانقضت دقائق قليلة اتخذ فيها صوت الأستاذ نغمة واحدة رتيبة جعلت رأسى يدور، وشعرت برغبة فى النعاس .. لكنى أفقت فجأة .. شيء ما قطع تلك النغمة الرتيبة المنظّمة .. وارتفعت رهوس الطلبة وتلفتت هنا وهناك لتعرف مصدر الصوت النشاز ..

ورأيته هو بأنفه .. خطيب الدفعة .. واقفاً منتصباً بين الرهوس .. وسمعتة يقول : « هل لي أن أسأل سؤالاً ؟ .. » وتوقّف الأستاذ وصوّب نحوه نظرة حادة كالخنجر لم أفهم منها هل ساءه أن يقطع عليه سلسلة الإملاء ، أو خشي أن يسأله سؤالاً لا يعرف جوابه .. وسمعت الأستاذ يقول له فى صوت رفيع حادّ : « الاسئلة آخر المحاضرة .. ليست الآن » ! فردّ الطالب الخطيب بحماس لا يفارقه أبداً : « ولكنى لا أستطيع أن أتابع المحاضرة .. إنّه سؤال خاصّ بالعنوان » ..

وارتسمت على وجوه الطلبة نظرات الاهتمام والاستطلاع والتعجب .. وقال الأستاذ : « أيّ عنوان ؟ » فقال الطالب « عنوان المحاضرة » .. والتفت الأستاذ الى السبورة ثم الى الطالب وقال فى آلية : « هيتروفس .. هيتروفس » وسكت الطالب وبلع ريقه ثم قال : « هل الأسماء قليلة الى ذلك الحدّ ؟ .. ألم تكن هيتروفس واحدة كافية ليسبى بها الطفيل ويكون الاسم الثانى شيئاً آخر بدلا من التكرار .. أم انها قلّة فى الاسماء ؟

ودوت خمسمائة ضحكة أو أكثر اهتزّ لها المدرّج وارتعدت جدرانه .. وابتسم الأستاذ ابتسامة ساخرة عليها مسحة من العلم المزوج بالفلسفة وأخذ يتمشى واضعاً يديه وراء ظهره

ومطرقاً رأسه كأنما يفكر في الردّ .. ثم توقّف ونظر الى الطالب وقال في سخرية : ليست قلة في الأسماء ، ولكنها عادة عند بعض الطفيليات أن يسمّى الابن بنفس اسم أبيه .. وضحك الطلبة .. وارتسمت على وجه الأستاذ فجأة امارات الصرامة وتلاشت ابتسامته وعاد يتسلّح ضدّ موجة الضحك والهرج بنظراته القويّة الحادة .. وقال للطالب في شدّة : اجلس ولا تسأل هذه الأسئلة السخيفة مرّةً أخرى .. ثم نظر الى ساعته وقال غاضباً : لقد أضعت من المحاضرة عشر دقائق .. إنك طالب مشاغب .. ما اسمك ؟ وسكت الطالب وطأطأ رأسه وقال بصوت خفيض : حسين حسين شاكر ..

وضجّ الطلبة بالضحك .. وقصف المدرّج برعد القهقهة العالية .. ونظرت الى الأستاذ .. كان يضحك هو الآخر .. وفرحت .. فقد كانت المرّة الأولى التي رأيته فيها يضحك منذ دخلت الكلية .. أما خطيب الدفعة فقد خلع عليه الطلبة اسماً جديداً هو : هيتروفس .. هيتروفس شاكر .. وظلّ هذا الاسم العجيب يطارده حتى تخرّج في الكلية بعد خمسة عشر عاماً وأصبح طبيباً ناجحاً ..

السّيء الصّعب

كان صوتّه العميق الهادئ ينساب في الليل ، ويصل الى
أذني دائماً هادئاً يريح أعصابي المرهقة من العمل طول اليوم ،
ويجعلني أمدد ساقيّ على السور الحديدي في استرخاء يشبه
النوم ، وأترك نظراتي المطمئنة تهيم في صفحة النيل الساكنة
•• هدوء •• هدوء عجيب يخلفه صوتّه ، ونظراته ، وحركاته
في كل مكان يوجد فيه •• وأنا أحبّ كل شيء هادئ في
الرجل •• ليس دائماً ••

وأرهفت أذني الى الصوت العميق أستمع •• كان يحدثني
عن نفسه ، عن طفولته ، وحياته ، وشبابه • عن أمّه وأبيه ،
وأخيه •• عن تجاربه مع النساء •• عن عمله •• عن ماضيه ،
وحاضره ومستقبله •

• كان يتكلّم ، وكنت أستمع ، وأنا أنظر في عينيه ال
العسلّيتين •• لا •• البنّيتين ؟ لا ليستا بنّيتين • ما لونهما ؟
لا أدري •• ليستا سوداوين ولا زرقاوين ، ولا خضراوين ••
ولكنّ لهما مع ذلك لون أراه ، واحسّه ، وأفهمه •• لون غريب
عميق •• كأنّه طبقات كثيفة كثيرة ، متراكمة بعضها فوق
بعض ، ليس لها قرار ، وليس لها سطح •• شيثان كرويان
يطلّان على عالم معلوم ، وغير معلوم ، وينفذان الى عالم مجهول
وغير مجهول ••

وسمعته يقول :

- ولكن لماذا أحكي لك كل هذا عن نفسي ..
ونظرت الى طبقات عينيه وابتسمت .. فقال :
- لا أدري .. ولكنني أشعر أنني أريد أن أحكي لك كل
شيء عني .. حتى تلك الأشياء التي كنت أخجل منها بيني
وبين نفسي أريد أن أحكيها لك ..

وأسند رأسه الى ظهر الكرسي في راحة واسترخاء ونظر
بعينيه العميقتين في السماء .. وظلّ تائهاً في ذلك السواد
الداكن فترة كأنما يبحث فيه عن شيء ، ثم التفت اليّ .. ونظر
في عيني نظرة طويلة ، أحسست بها تمشي في كل كياني ،
وتصيبني برجفة غريبة كأنّ شحنة جديدة من الأحاسيس
اجتاحت نفسي وجسمي ..

ورأيتّه يقترب منّي .. وامتدّت أصابعه تبحث عن يدي .
وأمسكها بكلتا يديه .. واستكانت يدي بين كفيه الكبيرتين
الداثنتين كما يستكين العصفور الوليد في صدر أمه ..
لكنّها لم تكن سوى لحظة ، لحظة استكانة قصيرة غافلت فيها
عاطفتي عقلي ، وتسربت مني تريد أن تمارس حقّها في أن
تعيش .. وأن تستكين .. وأن تهدأ .. وأن تضع رأسها
على صدر عريض حنون .

لم تكن سوى لحظة تنبّه بعدها عقلي ، وشدّ عاطفتي من
لجامها فأخضعها .. وجذبت يدي من كفيه الداثنتين الكبيرتين
فشعرت بالبرد .. كأنني تعرّيت في برودة الليل .. كأنني
فقدت مأوى في يوم مطير .

وانتفضت .. انتابني شعور بالخوف ، ذلك الخوف الذي
يشعر به المرء حينما تتولّد في نفسه حاجة جديدة الى شيء
ضروري قد لا يستطيع الحصول عليه ، أو قد يضيع منه لو
أنه حصل عليه ..

وقادني الشعور بالخوف الى رغبة في التمرد .. ذلك التمرد
الذي يحسن به العاجز ليضفي على نفسه قوة من عنده ..
وجدتني من حيث لا أدري أغضب .. وقلت له في ثورة :
- ماذا تريد مني ؟

قال في حنان :
- أحبك .. أحبك .. أحبك ..
قلت في ثورة :

- هل نسيت أنك رجل متزوج ؟ إنني لا أقبل هذا الحب
لأنني أعرف نهايته ..
قال في هدوء :
- وما نهايته ؟
- ستأتي بعد فترة وتقول لي .. لن أستطيع التخلي عن
زوجتي ..

- لن أقول ذلك ..
- ولن أقبل منك أن تتخلي عن زوجتك ..
وسكت قليلا .. ثم قال :
- وما الذي يرضيك الآن ؟
- ألا نتقابل ..
- أبدأ؟ ..
- أبدأ ..
- هل هذا هو الحل ؟
- ليس أمامنا سواه ..
- إنني أوافق على شرط ..
- ما هو ؟
- إن تقابليني حينما تريدون أن تغيري هذا القرار ..
وافترقنا .. ومضى يوم .. واثنان .. وثلاثة ..

وفى نهاية اليوم الثالث جاءني صوته العميق الصادق
يقول :

- أريد أن أراك ..

- متى ؟

- الآن ..

وجلست الى جواره أستمع الى صوته العميق الهادئ ،
وأشعر براحة تسري في أعصابي المرهقة ، فأمدد ساقبي على
السور الحديدي في استرخاء يشبه النوم ، وأترك نظراتي
المطمئنة في صفحة النيل .. قال :

- لن يكون بعد ذلك قرارات ..
وضحكت .. فقال :

- أتضحكين .. ماذا فعلت في الأيام الثلاثة ؟

- وماذا فعلت أنت ؟

قال وهو شارد وعيناه في السماء :

- تعذبت ..

وشعرت في هذه اللحظة أنني أريد أن أقرب منه ..
وأمسك رأسه بين يدي وأسنده على صدري لأمنع عنه
العذاب ..

ونظر في عيني .. وكأنه قرأ رغبتى فقال في صوت
غضوب :

- لماذا تحبّين الرجل الضعيف ؟

- لأنني أشعر أنه يحتاج إليّ ..

- إنني أحتاج إليك ..

وانتابني مرة أخرى الشعور بالتمرد فقلت له في ثورة :

- أنت لست في حاجة إليّ .. ستعود بعد قليل الى

زوجتك ..

وسكت فترة طويلة ، وعيناه تفتشان في ظلمة الليل عن

الإجابة .. ثم قال :
- أنت لا تعرفين .. أنّ الطاقة التي يشحنها الحب لا يفرغها
إلا الحب ..

وأعجبني كلامه .. لكنني زددت قائلة :
- هل طاقة الحب تفرغ ؟
- لا .. إنّ الحب يشحنها من جديد ..
وسكت قليلاً لأفكر .. وأحسست به يقترب منّي ويقول :
- خبريني ماذا تريدان ؟
فقلت في ذعر وأنا أراه يقترب مني أكثر وأكثر :
- لا شيء ..
قال في شدّة :

- مامعنى لا شيء هذه ؟ أنا لست مستعداً لأن أضحي بحبي
لك .. سأكافح من أجله .. لن أضيع فرصة حياتي ،
سأتحلّى عن كل شيء إلا أنت .. هل تتزوجينني ؟
وسرت رجفة في كياني ولم أشعر إلا وأنا أضح يدي على
فمه وأقول :

- لا تقل ذلك ؟ لا أستطيع ؟ .. هل نسيت زوجتك ؟
- إنّني أشعر أنّي أرتبط بك أنت ولا أرتبط بها .. إنّني
لا أستطيع أن أتخلّى عنك .. لم يكن زواجي إلا وظيفة ألقيت
على عاتقي ..
- لا .. لا تقل هذا .. سأعود إلى القرارات مرة أخرى ..
قال في حزم :

- أنت لا تملكين إصدار هذه القرارات وحدك .. إنّك
لم تعودى وحدك .. لقد ارتبطنا .. أيّ قرار إن كان هناك
قرارات يجب أن نصدده معاً .. ونوافق عليه معاً ..
واقتربت يداها منّي تبحثان عن يديّ .. وعثر عليهما ..
واستكانت يدي بين كفيه الكبيرتين الدافئتين كما يستكين

العصفور الوليد فى صدر أمه •
ومرة أخرى لم تكن سوى لحظة •• لحظة استكانة قصيرة
غافلت فيها عاطفتي عقلي وتسربت مني تريد أن تمارس حقها
فى أن تعيش ••
لحظة قصيرة لمعت كالبرق ثم أدبرت سريعاً •• وتنبه عقلي
وانتزع قلبي من بين كفيه الحائيتين الدافئتين ••
ونظر إليّ فنظرت بعيداً عنه فى صفحة النيل •• وسمعته
يقول فى مرارة وألم :
- إنك لم تحبيني !
وافترقنا بلا قرار على ألا نعود •• ومضى يوم •• واثنان •
وثلاثة ، وأربعة ••
وبت الليل مؤرقة أفكر •• وبدا لى السرير خشنا كأنه
مصنوع من الحجر ، وبدت لى الوسادة يابسة كأنها مليئة
بالمسامير •• وبدا لى الليل طويلاً ممتداً ، كأنه لن ينتهى ••
وعيناى الحمزوان المسهدتان تجوبان فى ظلمة الليل تبحثان
عن أشياء أحسها ولا أفهمها ، وأفهمها ولا أصدقها ، وأصدقها
فأعود لا أفهمها ••

لماذا قلت له لا ؟ •• لماذا تخليت عن حياتي ؟
وتقلّب كياني المرهق ينشد مكاناً على السرير أقل خشونة ،
وتحرك رأسى الثقيل على الوسادة يتلمس بقعة خالية من
المسامير •• سأطلبه فى الصباح وأسحب هذه اللا ••
وسبقنى •• كان يسبقنى ببضع دقائق • وجاءنى صوته
الحبيب يسألنى عن صحنى •• وقلت له :
- ماذا فعلت فى تلك الأيام الأربعة ؟
قال لى :
- وماذا فعلت أنت ؟
قلت له :

- تعذبت ..

وسكت قليلا .. فقلت له :

-أريد أن أراك ..

- متى ؟

قلت :

- الآن ..

وانساب صوته العميق الهادئ في أذني يريح اعصابي ،
ويجعلني أمتد ساقني على السور الحديدي في استرخاء يشبه
النوم ، وأترك نظراتي المطمئنة تهيم في صفحة النيل ..

وسألني وهو يبتسم :

- لم تقولي كيف تعذبت ؟

ونظرت في طبقات عينيه الكثيفة الكثيرة ثم قلت له :

-لماذا تحبّ المرأة الضعيفة ؟

قال :

- أنا لا أحبّ المرأة الضعيفة أبدا .. ولكني أحبّ المرأة

القويّة حينما تضعف ..

وأحسست فعلا أنني أضعف .. وأنني لا أستطيع أن أقاوم
كفّيه الكبيرتين الدافئتين ، ورأسي الثقيل المتعب وهو يميل
ليستريح على صدره العريض ..

لحظة استسلام بعد أيام من الصراع .. لحظة انتصار العاطفة
على العقل بلا خجل .. بلا عقد .. بلا صراع .. أروع لحظة
في الحياة .

ومضت اللحظة ولم أعرف مداها .. خلت أنها عمر جديد
يضاف الى عمري .. عمر جديد كامل له ماضٍ ، وله حاضر ،
وله مستقبل .

ومضت اللحظة رغم روعتها .. ورغم عمرها .. مضت كما
يمضي كل شيء رائع في الحياة وانتهت كما ينتهي أي عمر مهما
بلغ مداه ..

وفتحت عيني ، واسترددت يدي ورفعت رأسي ، وأمسكت
حقيبتى ، ووقفت ..

قال :

- ماذا حدث ؟

قلت :

- كل شيء ينتهى ..

- ولماذا تهربين ؟

- إنه شيء صعب ..

- ما هو ذلك الشيء الصعب ؟

- إن كل شيء ينتهى ..

وسمعتة يضحك فى مرارة وسخرية ويقول :

- انتهيت من مشكلة زوجتي فخلقت مشكلة أصعب .. لماذا

تعاملين نفسك بهذه القسوة ؟ لماذا تتركين عقلك وعاطفتك
يتصارعان ؟

ونظرت فى أسى الى صفحة النيل فاقترب مني ، وأمسك

يدي فى شدة وقسوة وقال :

- لن تكسبي شيئاً من هذه المعركة لأن ميدانها الوحيد هو

نفسك ، نصف ذاتك يصارع النصف الآخر .. والنتيجة

بالنسبة لك شيء واحد .. هو أنك تخسرين نصفاً دائماً ..

ونظرت فى أعماق عينيه أفتش عن شيء من هذا الصراع

عنده وقلت له :

- وأنت ؟ ألسنت مثلي ؟

قال فى ثقة غريبة :

- لا .. إن ذاتي لا تتصارع .. إن عقلي هو قلبي . وقلبي

هو عقلي ..

واحسست أنه أكثر منى .. وأقوى منى .. أكثر طبيعية

.. وأكثر بشرية . أكثر انسانية .. ووددت فى تلك اللحظة

أن القى نفسى بين ذراعيه القويين وأقول له :
- علمنى .. علمنى !
وكانما أحس رغبتى فنظر الىّ وكأنه يحتوينى بكل كيانه
وقال باسميا :
- سأعلمك ولنبدأ من هذه اللحظة ..
واعتدل فى كرسيه ، وقال كأنه استاذ يخاطب تلميذته :
- والآن وقبل كل شيء يجب أن تعترفى .. هل تحبيننى ؟
وكان جاداً .. وكان راضياً .. وكان قوياً .. وكان محباً
ونظرت فى اغوار عينيه العميقتين فاحسست أنه .. أنه رجلى
الوحيد وقلت له :
- نعم أحبك ...
ورأيتنه يبتسم ابتسامة عريضة ثم يضحك فى انطلاق غريب
وسمعتنه يقول وهو ينظر فى عينيّ بحنان كبير :
- هل كان شيئاً صعباً ؟
قلت وأنا أنظر بعيداً عن عينيه حتى لا يكتشف كذبي : /
- أبداً ؟ لم يكن شيئاً صعباً ..



مجرد صورة

صعدت هند سسلّم القطار وقفزت داخل الديوان لتلحق بالمقعد المجاور للنافذة، تماماً كما كانت تفعل وهي طفلة ، لم تغيرها عشرة أعوام طويلة كبرت فيها واستدارت ونضجت ونالت الليسانس وتزوجت .. لكنها هي هند التي يسعدتها أيّ شيء ، وأقل شيء ، مثل السفر وركوب القطار والجلوس بجوار النافذة ..

وجلس الى جوارها زوجها حسين بعد أن شبّ على قدميه ، ووضع الحقيبة فوق الرفّ ، ونفض يديه بتأنّ .. إنه هادئ الأعصاب كما يبدو من ملامحه الهادئة فيما يشبه الابتسامة ، وحركاته البطيئة كأنه لا يتعجل شيئاً .. واثق أن كلّ شيء يأتي في أوانه ..

وتحرّك القطار وهند تطلّ من النافذة وتراقب بيوت القاهرة وهي تتراجع الى الوراء ، والقطار متّجه ناحية الشمال الى الاسكندرية ..

وجفّت الابتسامة على شفّتيها وانتشر على ملامحها وجوم سريع .. هذه أوّل مرة تسافر الى الاسكندرية بعد زواجها .. وكانت آخر مرة في صيف العام الماضي بعد أن نالت الليسانس بدرجة « جيّد جداً » ، وعيّنت في وظيفة ممتازة بعد النجاح بشهر واحد ، وقبضت أوّل مرتّب ستة عشر جنيهاً ، واخذت

أجازة مرضية وسافرت الى الاسكندرية .. وهناك وسط
الأمواج الباردة كانت تقذف جسمها الساخن وتنطلق بذراعيها
وساقيها . تسبح كأنها طائر يعوم فى الهواء ثم تخرج من الماء.
وتنثر شعرها الناعم ليقتف بالماء عنه ، وتمتد جسمها المبلل
تحت الشمسية . وتضع رأسها على الرمل الدافئ وعيناها
نحو السماء تتقلبان وتفتشان فى الزرقة العميقة الداكنة عن
أشياء .. أشياء كثيرة تفكر فيها أولها سعادتها .. سعادتها
هي .. لقد حبست نفسها عشرة أعوام فى المدرسة والجامعة
والبيت لتذاكر وتنجح وتنال اليسانس وقد تحقق لها ذلك
.. ماذا بقي إذن ؟ لا شيء سوى أن تعيش ، أن تطلق من
نفسها ما كانت تكبله .. ولم تكن تكبل سوى مشاعرها ..
أحاسيسها كامرأة .. رغباتها ، استطلاعها ، شقاوتها ، وكانت
شقية بطبيعتها .. متحفزة متحمسة .. مليئة بالحياة متعصبة
لها ..

وقضت ثلاثين يوماً فى الاسكندرية تساوى ثلاثين عاماً من
عمرها الذى فات ، عرفت أنواعاً كثيرة من الرجال ، الشباب
الذى يدلي خصلة من شعره على جبهته ويلبس المايوه الضيق
ويتهخر أمام الكباثن يطرقع باللبان فى فمه ، والسلسلة فى
يده .. والرجل المتفلسف الذى يلبس الشورت ويجلس
وقوراً أمام الكابين ويمسك كتاباً بالمقلوب .. والرجل الهائم
على وجهه يزوغ بصره هنا وهناك وتخرج من بين شفثيه من
حين الى حين ثقليعة أو تعليق .. رجال فى كل مكان يكثرون
ويتكاثرون فى الصيف كأنهم ذباب .. وهى لم تعرف الرجال
وان كانت قرأت عنهم فى الكتب .. لكنّها فى هذه الأيام
القليلة تريد أن تراهم عن كثب .. أن تسمع كلامهم ، أن تقرأ
أفكارهم ، أن تلمس عضلاتهم وشواربهم .. ولم تكن تريد
واحدًا بالذات .. كان فى خيالها رجل .. فتى أحلامها ..

لكنها لم تكن تبحث عنه أو أنها أجلت البحث عنه حتى ترى
وتتفرج وتتمتع في الفرجة .. وأصبح كل يوم من هذه الأيام
الثلاثين مليئاً بالمواعيد مشحوناً بالشخصيات المتناقضة ..
في الصباح تسابق في الماء شاباً مائعاً يخيل اليها أنه فتاة
قصت شعرها .. وتحت الشمسية على الرمال تجلس مع
رجل يأكل الكلام كأنه من جوعه للحم الآدمي يلتهم لسانه
وينظر اليها كخريت طلع تواء من الماء .. وفي المساء تجلس
في الكازينو المطل على البحر مع رجل أشيب يخلط الأدب
بالفلسفة والحب بالموت كأنه يضرب الرمل ويخط بالودع . ولم
تكن تريد إلا أن تتفرج على الرجال ، أن تعرفهم، أن تدرسهم .
ووقف القطار فافقت من خيالها .

ونزلا من القطار، وهند تتأمل محطة سيدي جابر بوجوم، لقد
انتهى صيف العام الماضي ، وانتهت معه كل مغامراتها ولم يبق
في نفسها شيء بالمرّة سوى مفاهيم دخلت رأسها عن الحياة
والناس .. وبعد الثلاثين يوماً عادت الى القاهرة لتلتقي صدفه
بفتى أحلامها حسين وتزوجه .

ونظرت الى زوجها ورات ملامحه الهادئة الباسمة ، وأحسّت
أنها تثق فيه كما تثق دائما ، لكنها لم تكن تدري ما سر ذلك
الوجوم بداخلها ..

إنها لا تخاف شيئاً، وضميرها لا يؤنبها على شيء .. كانت
كلها مغامرات بريئة .. مجرد تجارب نفسية لا تحرك
إلا تفكيرها وتأملاتها .. لم يمسن قلبها أو وجدانها إنسان ولم
يهز أنوثتها رجل .. كانت كالعالم العجوز الذي يشرح في
معمله مجموعة من الضفادع والفيران .. وعلى أي حال، فقد
انتهى الصيف ، ومات في الماضي كما يموت أي شيء ولا يبقى
له أثر .. وعادت اليها طمانينتها حينما تذكرت مسألة الموت
هذه .. كانت تستخدم ذكرى الموت دائما لحل مشاكلها لأنها

تشحنها بموجة استخفاف بالحياة ، وما فيها من مشاكل
واهتمامات وعقد .. وتقول لنفسها مادام الانسان حتماً
« ميتاً » فكل ما في حياته هيئ تافه .. وبهذا استخدمت
ذكرى موت جدّها في التخفيف من وطأة حزنها على تأخرها في
التوجيهية ، واستخدمت ذكرى موت أمّها في التخفيف من
حزنها على موت أبيها وهكذا .

ولكنّ هذه الحالة لا تلبث لحظات كأنّها ومضات روحية قويّة
لا تلبث أن تنطفئ ، وتتركها « إنسانة » عادية في مهبط
الحياة ، تعزنها أشياء صغيرة مثل فقدان نصف ريال ويسعدها
أيضاً أشياء تافهة مثل السفر، وركوب القطار والجلوس بجوار
النافذة ..

وقضياً أياماً سعيدة في الإسكندرية .. الصباح كلّه للبلّاج
والبحر ، والمساء كلّه للسهر والفسح والرقص .
حتى كان صباح ، وهند وحدها تحت الشمسية ، تمدّد
جسمها المبلل بالماء على الرمل الدافئ وعيناها ناحية السماء
لا تتقلبان ولا تفتشان عن شيء .. إنها سعيدة في حياتها
ولا تطلب مزيداً من شيء .. وفجأة وقف أمامها مارد طويل
حجب عنها السماء والبحر ونهضت برأسها وهي تصيح في
دهشة : « مين ؟ »

وردّ عليها صوته الغليظ : « مين ايه نستيني ؟ »
وابتسمت في عدم اهتمام قائلة : « تقريباً .. »
واحمرّ وجهه من لهجتها ونظر إليها من قدمها الى رأسها
كأنّه يفحصها بلا إعجاب ثم قال : « تقريباً يعنى ايه ؟ »
وغاظتها نظرتة الجريئة الوقحة ولهجته الشديدة الآمرة . كان هو
كذلك دائماً .. جريئاً وقحاً معتدّاً بنفسه مغروراً .. لكنّها لم
تضق به كما ضاقت هذه المرة .. كانت في العام الماضي لا يهتمها
شيء سوى أن تتفرّج .. وكانت تقبل الناس على علائقهم .

وبأخطائهم وعيوبهم لأنهم كانوا لا يهتمونها في شيء .. لكنها
اليوم ، وبعد أن أحببت وتزوجت ، يهتمها زوجها وتهتمها
سعادتها وهي لا تسمح لأي رجل أن يكلمها بلهجة شديدة
آمرة، إلا زوجها في أوقات غضبه فقط ويعتذر بعدها .. ولكن
هذا الرجل من يكون ؟ ذلك الشاب المستهتر الذي قابلته
في الصيف الماضي ، والذي لا مبدأ ولا عمل له .. الذي يظهر
على البلاج في موسم الصيف كما يظهر التين الشوكي في
شهر يوليو والبلح في سبتمبر .. مجرد كائن حي يمشي على
رجليه ويكسو صدره شعر أسود ويلبس في أصبعه الصغير
خاتماً من الماس ، وأبوه كان باشا أيام الباشوات ..

واحمرّ وجهها من الغيظ وهي تراه يثني جسمه الطويل
ويجلس في برود بجانبها على الرمل ، وانتفضت واقفة على
ركبتيها وهي تقول بشدة : « تسمح تقوم من هنا ! » وأصابه
برود أشدّ لثورتها فأجاب بهدوء وعناد : « مش قايم ا » .
ولم يشعر إلا ويدها ترتفع وتهوي على وجهه في لطمة قوية
وهي تأمره بلهجة حادة كالكرباح : « اتفضل قوم بسرعة ! » ..
واحمرّ نصف وجهه الذي أصابته اللطمة واصفرّ النصف
الآخر ، ونظر إليها نظرة ارتعدت لها مفاصلها .. نظرة فيها
دهشة وشرّ وحقد .. نظرة رجل مصاب في كرامته الى أبعاد
حدود الإصابة .. وفرد جسمه الطويل ، وقام في ثققل ،
ومشى خطوتين ثم استدار إليها، وقال في صوت متغير غريب :
« لازم أدفعك تمن الصفة دي ! » .

ودقّ قلبها بعنف .. لماذا يقول هذا وماذا يملك حتى
يستطيع أن يفعل ضدها شيئاً ويغرمها ثمناً أيّ ثمن؟ .. وغاب
لون الدم من وجهها وارتعشت أصابعها في الرمل ، وأحسّت
بيد قوية تمسك قلبها ، لقد تذكّرت الصورة ، الصورة التي
التقطت لها وهي جالسة بالمايوه وبجوارها ذلك الشاب

يوشوشها في أذنها .. كانت أيامها تحيا في فكرة معينة عن الحياة تريد أن تعيش فيها فترة وقد انتزعت نفسها من بين البشر لتتفرج عليهم ، وهي ليست منهم، فماذا يضرها من صورة أو آلاف الصور .. مجرد ورقة عليها رسومات .. لكنها الآن تحسّ شيئاً آخر ..

صحيح أنها ورقة ولكنها تسجّل جزءاً من حياتها .. تسجّل موقفاً لها مع رجل يستطيع من يراها أن يحكى عنهما ألف قصة وقصة .. وشعرت بالخوف فتذكرت الموت وقالت لنفسها: الناس تموت كل يوم .. واليوم الذي يفوت لا يعود مرة أخرى أي أنه يموت .. ولكن هذا غير صحيح .. الماضي قد لا يموت، قد تسجّله أشياء تافهة مثل ورقة أو صورة فيبعث حياً من جديد .. ورقة حقيرة صغيرة يذئبها قليل من ماء البحر، لكنها تقف أمامها كأنها ثلاثون يوماً كاملة بكل دقائقها وثوانيتها وكل حوادثها وشخصياتها ومفارقاتها .. هذه الورقة في جيب هذا الرجل المغرور .. إنها سلاح يمكنه أن يستعمله ضدها .. والرجل الحقير لا يلبس حقارته مثل إهانة امرأة له .. وقضت هند صباحاً سيئاً .. تفكّر في الصورة وتتصوّر الرجل وهو يعطي زوجها الصورة ويحكي له قصة حب خرافية وأي قصة حبّ يمكن أن تتركب على صورة رجل وامرأة يتهاامسان .. وفجأة ، أحسّت هند بيد على كتفها فانتفضت .. كان هو زوجها وقد عاد ومعه السندوتشات وزجاجة بيرة .. ووضع الأشياء وهو يقول لها باسمّاً :

« انت نمت واللا إيه ؟ » ..

وابتسمت في إعياء وهي تردّ مازحة كماداتها : « إيه » .. وضحك زوجها وهو ينظر في عينيها : « دمك خفيف .. عمرك ما تنسى النكتة دي أبداً .. »

ونظرت إليه هند بعناية كأنها تراه لأول مرة وتفحصه

وتفتش في عينيه ويديه عن مدى حبه لها وثقته فيها .. ورات
عينيه الباسميتين ويديه الهادئتين الواثقتين فهدأت .. إنه
حسين .. زوجها الذي أحبته ، والذي يملأ حياتها ، ويستولى
على قلبها ، وتحسن بكل الرجال الى جانبه كأنهم نساء ..
وأعادت النظر الى عينيه ويديه .. إنه رجلها وحبيبها، ولكن
ماذا يكون من أمره اذا رأى الصورة ؟ وأحست بالقبضة
تمسك قلبها .. وسمعته يقول باسمًا :

« يا لالا يا هند قرّبي، أنا متّ من الجوع ا » ..

وأعاد لها صوته العميق الحنون ثقته فيها .. إنه لن يخذلها
.. هذا الرجل لا يمكن أن يفصلها عنه آلاف الناس تتراصّ
بينه وبينها، فما بالها بقطعة من الورق الصغير مطبوع عليها
رسومات . أيّ رسومات ..

وعاد اليها وهدوؤها كاملاً فأكلت ، وشربت البيرة، واستلقت
بجوار زوجها على الرمل وطال بينهما الحديث كما يطول دائماً ..
وفي صباح اليوم التالي كانت قد نسيت تماماً الرجل
والصورة لولا أنّها لمحت زوجها، مقبلاً عليها من بعيد ممسكاً بيد
رجل طويل ما أن تبينته حتى عادت القبضة الى قلبها تمتصره
بشدة .. ونهضت من رقدتها على الرمل وجلست متحفزة
تستعدّ لمواجهة الأمر وتستجمع قواها الهاربة في أركان نفسها
.. ووصل زوجها وجلس بجوارها بينما ظلّ الرجل واقفاً ..
ورأت هند الصورة في يد زوجها فارتعدت وبلعت أنفاسها
لتبدو هادئة ونظرت الى زوجها .. الى عينيه ويديه لتطمئن على
حبه لها وثقته فيها .. كان كما هو هادئاً باسمًا لم تتغيّر
ملامحه الا من معنى طفيف ساخر ..

وضع حسين الصورة في جيب قميصه بتأنّ، ونظر الى
زوجته وهو يبتسم قائلاً : « تصوّري يا هند الجدع يمشيني
لآخر البلاج عشان يوريني صورة » ونظر الى الرجل نظرة

ساخرة عميقة واثقة وقال له : « حد قالك اني غاوي صور ؟ »
هى صورة لطيفة فعلا لان فيها هند لكن انت تعبت نفسك « ٠٠ »
وسكت حسين ووضع يده على جيبه وربت على الصورة
برفق وحنان وقال له : « خلاص يا سيدى الصورة وصلت
مكانها ٠٠ تقدر تروح ٠٠ »

وبعدما اختفى الشاب من أمامهما نظرت هند الى زوجها في
دهشة ٠٠ فرأت عينيه الباسمتين فى عينيها وأحسّت يديه
الحيبتين الواثقتين على يديها وسمعت صوته الدافئ الحنون
يقول لها : « أما مغفل صحيح » ايه يعنى صورة ٠٠ وحتى لو
كان فيه حاجة انت عارفة انى لا يمكن أحاسبك على حاجة قبل
ما تعرفينى ٠٠ »

ونظرت هند فى عينيه ودموع الفرح فى عينيها ٠٠ إنها لم
تخطئ حينما عرفت من أول وهلة أنه فتى أحلامها ٠٠ إنه
رجلها الذى يثق فى نفسه وفيها ٠٠ رجلها الوحيد الذى
استطاع بقوته الناضجة الواعية أن يمسّ وجدانها ويهزّ
أنوثتها ٠٠

وابتسمت وهى تقول : « دى كانت مجرد مقابلات على
البلاج » ٠

فقال وعلى جبهته تكشيرة وفى عينيه ابتسامة : « كانت
شقاوة يعنى ! ٠٠ »

وردت بسرعة : « شقاوة ببراءة » ٠٠
واقترب منها وقبّل كتفها فى حنان وهو يهمس فى أذنها :
« أنا عارف يا هند ايه ٠٠ » ثم نظر فى عينيها وهو يسألها
باسما ككل مرة : « واللّا ايه ؟ » وهو يعرف أنها ان تنسى أن
تقول له : « ايه » وفعلا كان ٠ وضحكا معاً للمرّة الألف على
النكتة ٠٠ حتى فى هذه المواقف الخطيرة لا تنسى هى هذه
النكتة الصغيرة ٠

الدوسيه الضائع

دقت الساعة التاسعة صباحاً حينما كان الدكتور خالد يسير في الممر الطويل الضيق المظلم الذي يقود الى حجرة الأرشيف وبين شفطيه سيجارة لم يشعلها بعد ، وفي نظراته كآبة جبيسة لم تجد طريقاً الى الانطلاق . .

وأخرج من جيبه علبة الكبريت وأشعل السيجارة ثم ألقى بعود الكبريت على الأرض الاسفلت، وهو يلعن هذا الممر المظلم الكئيب الذي قاده اليه الحظ السيئ. . . منذ ثلاثة شهور ، يأتي صباح كل يوم ، ويتحسس بقدميه درجات السلم المتهتمة حتى يصل الى الممر الضيق الطويل كأنه سرداب في بطن الأرض ، ويرى « الدولاب » المعدني الذي يرتكن على الحائط اليمين ، والنضد الخشبي الذي وضع الى اليسار ، ثم الباب المغلق الى اليسار أيضا ، ولا يعرف لماذا هو مغلق والى أي سرداب يقود . . وأخيراً يأتي الباب المفتوح عن اليمين وعليه لوحة نحاسية صغيرة كتب عليها « الأرشيف » .

وتنهّد الدكتور خالد وهو يدخل من الباب الصغير الى حجرة مظلمة رطبة ، يبتلع نصف مساحتها تقريباً دولاب خشبي كبير له أرفف كثيرة تختفي تحت عدد لا يحصى من الدوسيهات ، ويشغل النصف الآخر مكتب خشبي كبير ، أسود اللون ، ينوء

نحت أكوام من الدوسيهات . ومن خلف هذه الأكوام يظهر رأس محفوظ أفندي موظف الأرشيف بنظارته السميكة البيضاء وشعره الأبيض . يرتكن على جسد نحيل يفرق في بدلة واسعة قديمة كأنها صُنعت له منذ عشرين أو ثلاثين عاماً حينما كان شاباً ممثلياً الجسد لم تنحل وبره السنون بعد .

وكان محفوظ أفندي كعادته يكتب شيئاً حينما دخل الدكتور خالد . . انقصت ثلاثة شهور بأكملها والدكتور خالد يأتي الى عمله الحجره صباح كل يوم ولا يرى محفوظ أفندي الا وهو جالس يكتب ونظارته البيضاء السميكة تندلي على ارنبة أنفه فيخيل إليك في تلك اللحظة أنه لا يرى شيئاً إلا أنفه . لكنه حينما يرفع رأسه ويبربتس بعينه في الفضاء ثم يقول بصوته الرفيع: أهلا دكتور خالد اتفضل . تعرف في هذا الوقت أنه قد يرى شيئاً آخر .

وجلس الدكتور خالد كما تعود ان يجلس على الكرسي الخشبي الوحيد في الحجره ، باستثناء كرسي محفوظ أفندي بالطبع إذ له ثلاثة أرجل فقط تركه محفوظ أفندي جانبا لمن تسوقه المائدة لينزل ضيفاً عليه .

وأسند الدكتور خالد الكرسي الى الحائط وجلس عايشه بهيئة اكتسبها بعد خبرة ثلاثة أشهر، وقال لـ محفوظ أفندي جملته التقليديّة : « صباح الخير يا محفوظ أفندي ، خير ان شاء الله ، ياترى لقيت الدوسيه ؟ » وتململ محفوظ أفندي في كرسيه وهو يهرك يديه وقال بصوته الرفيع : أبدأ والله يا دكتور خالد ، انا مش عارف الدوسيه ده راح فين ، كل يوم أفرز الدوسيهات اللي سيادتك شايفها دي واللي في الدولاب الكبير ده والدوسيه بتاعك مش باين ابدأ ، حاجة غريبة . زي ما يكون عفريت خده ، بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وأخرج محفوظ أفندي مسيحة صفراء من أحد أدراج مكتبه ، وأخذ يبسهل على كل حبة من حباتها ويصلي على النبي ، ثم انتهى منها بعد

دقائق وأعادها في خسوع الى الدرج ، والتفت الى الدكتور خالد وقال : « أنا رأيت يا بيه انك تيجي هنا بكره يمكن ربنا يكون سهل واعتبر على الدوسيه منا والا هنا »

وقال الدكتور خالد وهو ينفث دخان سيجارته في آسى :
« لا بكره ولا بعده ، خلاص مافيش فايد »

واهتزت نظارة محفوظ افندي وهو يفعل قائلًا : « لا يا بيه ماتقولش كده مافيش حاجة بعيدة على ربنا أبدا ٠٠ ربنا قادر على كل شيء ، مين يعرف بكره تيجي تلاقي الدوسيه ظهر فجأة كده على وش الدوسيهات ، الإنسان لازم مايفقدش الأمل في ربنا بسرعة كده يادكتور » .

وقال الدكتور خالد وهو ينفخ : « بسرعة ؟! يا شيخ حرام عليك ، مش مكفيك ثلاثة أشهر باجي هنا كل يوم ٠٠ ثم ان ربنا ماله يا أخي » ؟

وكانما أطلق الدكتور مقدوفاً نارياً في وجه محفوظ افندي أو فجر في جسده قنبلة يدويه فانتفض محفوظ افندي على كرسيه وارتجّ جسده النحيل داخل البدلة الواسعة وقال : « أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم ٠٠٠ »

ثم التفت الى الدكتور خالد وقال في عتاب ولوم شديدتين :
« ربنا ماله ؟! بقى ده كلام تقوله يادكتور » ؟
وانفجر الدكتور خالد غاضباً :

« هو أنا قلت حاجة على ربنا يا أخينا ؟ أنا ماكفرنش والله الحمد وان كانت المصيبة دي تكفر الى عمر ماكفر »

وقال محفوظ أفندي في بلادة : « مصيبة ايه كفى الله الشر ؟ وشدة الدكتور خالد شعر رأسه وصاح قائلًا : « بقه انت لسه مش عارف مصيبة ايه ؟ مصيبتى ! مصيبة الدوسيه ٠ الدوسيه الى لابس طاقيه الاخفاء مصيبة البعثة الى حتروح منى ! » .

وبربش محفوظ ببقايا عينيه المتاكلتين من وراء الزجاج السميك وقال : « بعثة ايه يادكتور ؟ » ويردّ الدكتور خالد :

« بعثة أمريكا عشمان آخذ الدكتوراه »
واندهش محفوظ افندي ، واتسعت المسافة الرفيعة الضيقة
بين جفنيه وقال: « تاخذ الدكتوراه ؟! هو انت لسه ماخذتهاش؟
أمال اسمك الدكتور خالد ليه ؟ »
وهزّ الدكتور خالد يديه فى زهق وقال : « لاده موضوع
شرحه يطول ، المهم ان ضياع الدوسيه ح يضيع علي البعثة »
وقال محفوظ افندي في غباء : « ليه يابيه ؟ »
ووقف الدكتور خالد وقد نفذ صبره وقال : « أوف اربنا
يطولك ياروح ! »
تلقت حوالية فى حيرة وقال يخاطب نفسه « وبعدين ! الدوسيه
ضاع ! مش معقول ! والبعثة ! آخ ياني ا »
ونظر الى محفوظ افندي يحاول أن يفتش فى جزء منه عن قبس
من الأمل فى العثور على الدوسيه ، لكنه وجده وقد انكفا على
الشيء الذى يكبه دائماً ونظارتة السميكة متدلّية على أذنه وكأنه
نسي وجوده تماماً
وخطرت للدكتور خالد فكرة وهو واقف هكذا ، فانتعست
روحه بعض الشيء ، وخلع سترته ووضعها على الكرسي الخشبي
وشمّر عن ساعديه وبدأ يفرز بنفسه الدوسيهات واحداً واحداً ،
ومحفوظ افندي غائب عن العالم فى الشيء الذى يكتبه . . .
وانقضت ساعات والدكتور منهمك فى البحث حتى تصبّب
منه العرق وسعر بألم فى أصابع يديه ، لكنه كان متحمساً يعمل
بأمل جديد أنقذه من الشعور الكئيب باليأس . . . وانتهى من
الدوسيهات التى فوق المكتب فانتقل الى الدوسيهات المترصّنة
فى الدولاب وأعمل فيها البحث والتفتيش .
ولم يجرأ شيئاً . . . وعاد متعباً يائساً ولبس سترته وجلس
على الكرسي بعد أن أسنده الى الحائط ونظر فى أسى الى محفوظ
افندي وقال : « حاجة تطير العقل الدوسيه بتاعى مش هنا ! »
وتهلّل وجه محفوظ افندي وقال : « عشمان تعرف إني ماكدبش

أبداءً ، وأنا عارف شغلي كويس خالص ، وحافظ الارشيف ده ورقه ورقه ، ده أنا بقى لى خمسة وثلاثين سنة فى الشغلة دي يادكتور ٠٠ « وأطرق الدكتور خالد فى حيرة وأسى ، ونظر محفوظ افندي الى النافذة ثم صاح : « ياه ا ده الشمس راحت من فوق الحيطه اللى جنبنا .

ونظر الدكتور فى ساعته ثم قال : « اتنين ونص ٠٠ » وشد محفوظ افندي نفسه من فوق الكرسي بصعوبة وقال وهو يتأوه : آه ياكعبى الشمال ٠٠ شوف يادكتور أنا ادبت الحكومة نص ساعة زيادة من وقتى ٠٠ لكن معلش أنا مش بادقق ، ربنا قال اعمل الخير وارميه البحر ٠٠٠ آه ياكعبى الشمال ا الرومانزم يادكتور تاغبنى خالص ، اعمل له ايه بس ؟ » .

ونظر الدكتور الى كعب محفوظ أفندي فى حركة آلية يفعلها أي طبيب حينما يتأوه الى جانبه مريض ويشكو من جزء فى جسمه ٠٠٠ ورأى الدكتور شيئاً على الأرض ا ولم يصدق عينيه اول الامر ٠٠ فأغمض عينيه وفتحهما ثم أعاد النظر مرة ومرتين وثلاثاً ٠٠٠ ولم يشعر إلا وهو يقفز من فوق كرسيه كالمجنون وصاح فى وجه محفوظ أفندي قائلاً : ايه ده ؟ ونظر اليه محفوظ افندي فى تعجب وقال فى بلادة : « كعبي ٠ » وقال الدكتور : « ايه اللى تحت كعبك ده ؟ » وقال محفوظ أفندي وهو يأخذ مسبحته من الدرج ويغلق ادراج مكتبه :

« ولا حاجة ٠٠ دول شوية دوسيهات حطيتهم تحت كعبي يحوشوا عنى رطوبة البلاط ٠ » وأخرج الدكتور الدوسيهات من تحت المكتب وفرزها بسرعة ثم تهلل وجهه فجأة وهو يمسك بأحد الدوسيهات وصاح : « آهه ! الدوسيه بتاعي ياراجل يامجنون ! بقى تدوّخني ثلاث شهور

والدوسيه بتاعى تحت رجلك ! مستقبلى كله تحت رجلك! اما
معتوه صحيح !»

وبريش محفوظ افندي من تحت نظارته السميكة وقال فى
برود : « اسكت يادكتور اسكت ده ربنا ٠ »
وقال الدكتور فى دهشة : « ايه ؟ ربنالك تحطّ الدوسيهات
تحت رجلك ٠٠ »

وحرك محفوظ افندي حبات مسبحته فى خشوع وقال : « لا
يادكتور ، ده ربنا زي ماقلت لك قادر على كل شيء ، مش قلت
لك إن ربنا يمكن يظهره كده فجأة على وش الدوسيهات ٠٠٠
ياسلام ياما انت كريم باربّ » ٠٠

وماء الحب

كنت أجلس على حافة السرير بجواره ، وهو نائم .. عيناه
مغمضتان .. عيناه الحبيبتان اللتان كنت أنظر فيهما فتشرق
الدنيا في عيني .. عيناه السوداوان يكسو بياضهما دائما
حمرة خفيفة تضفي علي نظراته قوة ، وصدق عاطفة .. وملامحه
كلها نائمة غائبة في ملكوت آخر ..

ومددت يدي في رهبة ، وتحسست جبينه .. وسرت في
جسمي قشعريرة باردة .. وانتقلت أصابعي في غير وعي
تتحسس خدي ، وأنفه ، وشفتيه وجفنيه .. ولم أدر كيف
اشتفت لأن أنظر في عينيه .. لأن أرى ولو لمرة واحدة سواد
عينيه الحبيب الذي كنت أنظر فيه فأرى الدنيا بأسرها تشرق
وتبتهج .. ووجدت أصابعي تفتح الجفنين في تهيب .. وانحسر
الجفنان عن عينيه .. ورأيت سوادهما نائما غائما .. ليست
فيه حياة .. وليست فيه دنيا تشرق .. وليس فيه أي شيء ..
سواد ميت غارق في بياض ميت .. شيء كروي أسود ! ..
جماد ! ..

لا ، لا .. وانطلقت متي صرخة لم يسمعها أحد الا
أعماقي الحزينة المفجوعة .. وتركت أصابعي جفنيه فانزلتنا على

عينيه كالستائر تخفيهما عني ، وكانما أشغفا عليّ من التحديق
فيهما . . .

وانتفضت . . . إنّ عقلي يأبى أن يفبل هذا الواقع الشاذ الذي
يشبه الخيال . . . لقد كان أبي منذ دقائق يمسلاً هذا البيت
نشاطاً ، ومرحاً ، وحياءً ! . . . لقد كانت عيناه . . . عيناه . . .
هاتان ! . . . تتألقان ببريق يعكس الدنيا بكل صورها . . . كيف؟
. . . كيف تخمد هذه الحياة فجأة ؟ . . . كيف تنظف هاتان
العينان ، وتصبحان قطعتين كرويتين من جماد ؟ أهذا هو الذي
يسميه الناس موتاً ؟ . . .

وأحسست بدموع ساخنة تجري على وجهي . . . ورأيت وجه
أبي يشحب عمّا كان ، وأتخذت ملامحه شكلاً رصيناً رهيباً . . .
كأنها ملامح تمثال نحت من الجرانيت . . . وأمسكت وجهه البارد
في يدي ، وقربت شفتيّ من بشرته ، وقبّلته ، وهمست في
أذنه ، « أبي . . . أين أنت ؟ هل تسمعني ؟ إنني أحبك » . . .
وشعرت براحة بعض الشيء . . . كان كلماتي من صدقها ،
وحرارتها ، أذابت جليد الموت ، وبعثت في أذنيه الحياة فسمعني
. . . وابتسمت وعانقته . . . وأخذت أتحسس جيوبه ، وكان
لايزال بالمنامة الجديدة التي اشتراها بالأمس . . . ووضعت يدي
في جيب الساعة العلوي فوجدت نظارته ، وقلمه ، وعلبة
سجائره . . . وخفق قلبي من الدهشة . . . هذه الأشياء ! . . .
أشياءه ! . . . تؤكد لي أنّه لم يمت لأنها تعيش في جيبه حية
تنتظره ! . . . وتأملت نظارته . . . وخيّل إليّ أن فيها حياة . . . أن
فيها عينيه تنظران . . . ونظرت الى قلمه الخبر . . . ورأيت أصابعه
تلتفّ حوله تكتب . . . وارتعشت أصابعي ، وأنا أعيد هذه
الأشياء الى مكانها في جيبه . . . وأزحت الملاء عنه قليلاً لأبحث
عن يديه . . . وأمسكت أصابعه بأصابعي . . . آه ! . . . وأمسكت
يده بكلتا يديّ ، ووضعت وجهي في راحته الكبيرة ، وبكيت . . .

ولم أدر إلا بيد على كتفى .. فوقفت .. وغطيت أبي بالملاءة
حتى وجهه ، وأغلقت عليه الحجرة .. لا أريد أن يرى أبي أحد
وهو راقد شاحب ضعيف .. إنَّ الضعف عورة .. ولا أريد
أن يرى أحد عورة أبي .. أبي الرجل القوي .. العملاق ..
الذي علّمني كيف أمشي ، وكيف أتكلّم ، وكيف أحبّ .. كنت
أجلس الى جواره كلّ ليلة وأستمع الى حديثه العذب ، وهو
يشرح لي كلّ شيء .. حتى الحبّ .. وكان بطبيعته فنّاناً يعشق
الفنّ .. وفي ليلة سألته : «ماذا تفعل يا أبي لو عرفت أنّي
أحبّ » .. وكان يجلس بجوار المدفأة ، فنظر إليّ مدقّقاً ثم قال :
« لا شيء .. المهمّ أن يكون إنساناً يستحقّ هذا الحبّ .. »
وسألته : « وكيف أعرف أنّه يستحقّ ؟ »
قال : « مادمت لاتعرفين فهو لا يستحقّ ؟ »

وسمعت في البيت ضجّة ، وصخباً .. ورأيت أناساً
كثيرين ، رأيتهم من قبل ، يلبسون السواد ، ويروحون ،
ويجيئون لا أدري لِمَ ؟ .. وبعد وقت لم أعرف مدهاه رأيت
الرجال يحملون أبي في صندوق خشبيّ ، ونزلوا به الى الشارع
.. وانطلقت العربّة .. وكنت أجلس في العربّة نفسها بجوار
الصندوق .. ولم أكن أبكي .. لكنّ شيئاً ثقيلاً كان جائماً على
صدري يقبض على قلبي بيد من حديد .. ونظرت من نافذة
العربّة الى الطريق فوجدت الحياة على أشدها .. الناس يجرون ،
والعربات تتسابق ، والشوارع كلّها مليئة بالصخب والسعي
والكفاح .. وتراخت اليد الحديدية عن قلبي بعض الشيء ،
وجذبت نفساً عميقاً من هواء الشارع .. ثم نظرت داخل العربّة
فوجدت صندوق الموت ، يحمل أبي .. فعادت اليد الحديدية
تقبض على قلبي من جديد ..
وسارت عربّة الموت وسط عربات الحياة السريعة .. وأنا
أجلس داخلها أجترّ آلامي وأحزاني .. وأخيراً وصلنا .. وأنزل

الرجال صندوق أبي ووضعوه على الأرض ، ثم فتحوه وحملت
داخل الصندوق لأرى أبي ، وخفق قلبى خفقة عنيفة كأنه
يفرغ بها كل دمه . . . ورأيت أبي ملفوفاً فى أقمشة بيضاء لا
تُظهر منه شيئاً . . . وحملوه ، وأدخلوه فى حفرة صغيرة ، ثم
أهالوا عليه التراب ، وتلفتت حولي فى ذعر . . . كان الدنيا قد
خوت وأقفرت . . . أو كان ريحاً عاتية أقبلت واقتلعت أبي ،
فأصسبت أنا فى مهبّ الريح أنتظر دوري . . . ورأيت الرجال
ينفضون عن ملابسهم ، وأيديهم ، التراب فى آية غريبة ،
وكأنهم فرغوا من رجة غذاء عادية ، ولم يواروا الترى إنساباً
كان هو بصري وسمعي وحياتي . . .

وبقيت وحدي كالمذهولة أحملق فى الحفرة الصغيرة التي
ابتلعت أبي . . . أهكذا !؟ أهكذا ينتهي الإنسان !؟ أهكذا
ينتهي أبي . . . الرجل القويّ الجبار الذي كنت أنظر إليه كعملاق
تطاول هامته السماء !؟ أهكذا ينتهي به المطاف الى أن يرقد
فى حفرة من التراب !؟ . . .

لا ! لا . . . لا ! . . . صرخت من أعماقي فى ثورة ، واندفعت
الى مكان الحفرة ، واخذت أنبش بأصابعى فى عصبية تشسبه
الجنون . . . لا ! لا ! إني لا أقبل هذا ! إنها نهاية قاسية ! لا أقبلها
أبداً . . . سأتحداها . . . سأنبش حتى أفتح هذه الحفرة ، وأخرج
أبي منها ! وأحسست بثورة فى أعماقي تندلع وتضطرم . . .
ثورة على الحياة . . . وثورة على الموت . . . وثورة على . . .

وأفقت على يد تسحبني ، وصوت يقول لى : « هيا بنا نعد »
وعدت مع اليد التي سحبتنى أنظر الى الحياة شرراً . . . وأنظر
الى الناس شرراً . . . وأسخر فى أعماقي من جريهم ، وحاسهم ،
وأقول لهم فى نفسي : « كفى . . . كفى . . . كفاكم جهلاً وجرياً . . .
ألا تعلمون ما نهايتكم ؟ . . . حفرة فى التراب . . . تراب يهال
عليكم . . . تراب فى تراب ! . . . »

ولم البس السواد . . . كان موت أبي . . . بل . . . مشكلة الموت

نفسها تشغل تفكيري كله حتى أنني كنت أضع ملابسي على
جسمي بلا وعي ، ولا أكاد أعرف لون الرداء الذي ارتديه ..
وجاءني صوته في التليفون حزينا ، معزيا ، مخففا ..
والحقيقة أنّ هزة الموت أنستني هذا الصوت فترة .. لسكنتي
رغم ذلك كنت أنتظره .. كنت أتلمس شيئاً قوياً من الحياة
يعيدني اليها .. شيئاً عنيفاً يهزني فتسقط عني ، بعض الشيء ،
غشاوة الموت القاتمة .. وما من شيء يستطيع أن يفعل ذلك إلا
الحبّ ..

وقلت له وأنا أتشبّث ببفايا حماس في قلبي : « أريد أن
أراك .. » قلتها ببساطة .. وكانت المرّة الأولى التي أقول له
فيها أريد أن أراك .. كنت أشعر أحياناً برغبة في النطق بها ،
لكنّ شيئاً ما في أعماقي يمنعني ، فأقول شيئاً غيرها ، أو
عكسها ، أو لا أتول شيئاً على الإطلاق .. لكنني بعد أن شهدت
الموت رأيت الحياة أبسط وأتفه من أن أكتب في صدري كلمة أريد
أن أنطق بها ..

ودعاني الى بيته .. وترددت قليلاً ، ثم وافقت .. ولبست
ملابسي بإهمال زاد بعد موت أبي عمّا عهدته في نفسي .. ولم
أضع على وجهي أية مساحيق .. ونظرت الى عينيّ طويلاً في
المرآة وقامت لنفسى : « ليس في الحياة شيء يبعث على الذعر حتى
ذهابي الى بيته ! .. »

ووصلت الى بيته دون مشقة كبيرة .. وفتح لي الباب ..
ورأيته لأول مرّة بعد موت أبي .. ولا أدري تماماً ماذا كان وقع
منظره عليّ وهو في بيته .. هل ضاع هيبته الجميلة التي
كنت أهواها فيه ، أم أنّ موت أبي أضاع هيبته الحياة بكلّ ما فيها
حتى هو ! ..

وقال بعد أن تكلمنا قليلاً : « لم أرك فاترة كالיום .. »

وقلت : « لقد جعل الموت الحياة باهتة في عينيّ .. »

فقال : « بالعكس - إن الموت يجعل الحياة في عينيّ زاهية .. »

تصوّري لو أننا نعيش الى الأبد . كيف تكون هناك حياة اذا لم يكن هناك موت ؟ . وعلى كلّ فإنّ الموت مصيره الى الموت كما قال طاغور . «

واقترّب منّي قليلاً وقال : « لم أكن أتصوّر أنّ شيئاً ما في العالم يستطيع أن يفرس الحزن في عينيك . . لم يكن التشاؤم أحد صفاتك . «

قلت : « بل إنّ التشاؤم أحد صفاتي » .
ولا أدري لماذا يثير الرجل حزن المرأة . . لعلّه يرى فيه نوعاً من الضعف أو الأنوثة . . ورأيته يقترّب مني أكثر . . ويأخذ يدي في يديه ، ويقبلها . . وهمس قائلاً : « أحبّك » . . وكأنني لم أسمع كلمته . . ولم احسّ قبلته . . فلم تهتزّ خلية واحدة في جسمي . . وشعرت بالصقيع يحوطني من داخلي ، وخارجي . . ولم أجد في نفسي شيئاً من الحرارة حتّى لأسحب يدي من يده . . كان عقلي قد تجمّد عند فكرة الموت ، ووقف عندها ينظر الى الحياة شزراً ، ويرى كلّ ما فيها تافهاً حتّى الحبّ . . فلا هو يعارض ، ولا هو يحبّ . . يستسلم لما يحدث في سلبية مطلقة تشبه الموت .

ورأيته يبتعد عنيّ ثم يقول : « أنت لا تحبّيني »
وقلت : « إن الموت . . » وقاطعني قائلاً : « لا . . لا تقولي الموت . . الموت لا يغيّر شيئاً من الحبّ . . »
وسكت . . ورحت أفكّر وأبحث في زوايا نفسي عن حبيّ له لكنني لم أجد شيئاً . . كأنما تبخر حتّى آخر قطرة . .
وقلت في عجب : يا إلهي إن الموت أقوى من الحبّ . .
وسمعتة يقول : « بل الحبّ أقوى من الموت . . اذا كان حبّاً حقيقياً ، أما اذا كان وهماً فإنّه يبهت ويتلاشى بجوار لون قويّ صارخ كلون الموت » وودّعني وهو يقول : أرجو أن تقابلي حبّك الحقيقي يوماً ما لتصدّقي كلامي . .
لم أصدقه في ذلك اليوم . . لكنني أحسست بشعور خفيّ ينبئني بأنني سأصدّقه يوماً ما . .



هوس

كانت تشبّ على أطراف أصابعها لتطلّ برأسها الصغير من فوق جدار الشرفة المبنيّ بالطوب الأحمر ، واستطاعت بعد محاولات كثيرة أن ترى العربة الصغيرة الزرقاء وهي واقفة أمام الباب تحت الشرفة تهتزّ وتنتفض وتصدر عنها أصوات لا تعرف مصدرها تشبه « الشخصخة » التي تسمعها وهي تتفرّج على المركب الصغيرة تسبح في حوض الماء .. تلك اللعبة الجميلة التي أحضرتها لها أمّها منذ أيام في عيد ميلادها الرابع ..

وسبّت على أطراف أصابعها أكثر وأكثر حتى استطاعت أن تدلي رأسها من الشرفة لترى العربة الزرقاء وهي تنطلق مسرعة في الشارع القصير ثم تنحني الى اليسار وتختفي .. وأسندت ذقنها الصغير على حائط الشرفة والدموع تنهمر من عينيها الصغيرتين ، ونظراتها الزائغة اليائسة تتعلّق بنهاية الشارع الذي ابتلع العربة لاندري الى أين ، وقلبها الطفل يدقّ دقّاً سريعاً متواصلًا وقد اجتاحه شعور بالخوف والفقدان ، وأنّ تلك القوّة التي ترعاه وتحميه قد ركبت العربة واختفت في نهاية الشارع . ونادت بصوتها الرفيع الباكي : « ماما .. ماما .. » ، وظلّت نظراتها اليائسة ترقب نهاية الطريق ، وقد صوّرها أمل ضعيف أنّ العربة الزرقاء ستعود منه فجأة .

ولكنّ العربية لم تعد ٠٠ وبقيت نهاية الشارع خاوية مقفّرة
كخرابة مهجورة ، ولم تعرف أيّ وقت مضى وهي واقفة متكئة
بذقنها ويديها على الحائط حتى جفت الدموع على خديها وكفّت عن
نداء أمها ، وأغمضت عينيها وراحت في النوم .

وفتحت عينيها بعد فترة فوجدت نفسها في السرير الكبير
ترتجف من البرد ، وقد بلّلت الفراش وتعرّى جسمها الصغير
بعد أن رفست عنها الغطاء وهي نائمة كعادة الأطفال ، ونهضت
من السرير مسرعة وخرجت الى الشرفة ونظرت الى نهاية الشارع
علّها تجد العربية الصغيرة مقبلة ٠٠ ولما لم تجد شيئاً دخلت يائسة
الى الحجرة وفد بدأت تحسّ بالجوع ٠٠ ودارت في حجرات البيت
الواسعة الخاوية لنبحث عن دادة فاطمة ٠٠ ووجدتها ٠٠ كعادتها
متكّومة حول نفسها على الأريكة في حجرة النوم المهجورة في
أقصى البيت ، والتي ليس بها إلا سرير قديم تنام عليه دادة
فاطمة وبعض الأثاث العتيق الذي استغنت عنه الأسرة .

– جوعتي يا حبيبتي ؛ ٠٠ ده انت من الصبح ماكلتيش . .
ياضنايا ! ٠٠ تاكلي ايه ؟ أجيب لك شوية رزّ وفاصوليا ولحمة؟

وفكّنت قدميها ويديها وفردت جسمها النحيل اليابس ، وقامت
في تكاسل وهي تقول لنفسها : « أنا عارفه قلب أمك ده ايه !
حجر ! ٠٠ يا قلبها يا اختي تهون عليها بنتها كده ! » ٠٠ ومسحت
بكفّها دمة سالت على خدّها فقد تذكّرت ابنتها الطفلة أيضا .
وقد تركتها في البلدة مع أبيها المشلول وجاءت هي الى القاهرة
لتشتغل وتعولهما ٠٠ وقالت لنفسها : طيبّ أنا سايبها عشان
أأكلها وشربها ٠٠ لكن دي سايبه بنتها ليه ؟ عشان الراجل !
٠٠ أخص عليها ٠٠ راجل ايه وهمّ ايه ! هو فيه بعد الضنى
حاجة ! ٠٠ »

وجلست سوسن على المائدة ترقب دادة فاطمة وهي تروح
وتجىء وتضع الأطباق أمامها ٠٠ وتأمّلت أصابعها الغليظة الجافّة

وهي تمسك بالأطباق فتذكرت أمها بأصابعها الرفيعة الرقيقة
وهي تعدّ لها الطعام في بيتها . .
• هي ماما بتروح فين يادادة ؟
- بتروح المدرسة يا حبيبتي عشان تدرس للاطفال وتعلمهم
الحساب .
• أنا عاوزة اروح معاها المدرسة .
- لما تكبري يا حبيبتي شويه كمان تروحي المدرسة .
• وهي ماما بتبات فين ؟ . . في المدرسة ؟ . .
- أيوه في المدرسة .

وتنهدت دادة فاطمة ، ومسحت عينيها بكمّها ، ثم جرّت هيكلمها
النحيل وذهبت الى حجرتها . . وجلست سوسن تأكل وحدها
ثم تذكرت المركب فقفزت من فوق كرسيها وذهبت الى صوانها
الصغير وأخرجت منه المركب وملأت الحوض بالماء ، وجلست
تتفرّج على المركب وهي تسبح في الماء وتحدث شخصخة غريبة
تشبه الصوت التي تحدثه عربة أمها الصغيرة حينما تهتزّ وتتحرك
رتأخذ أمها وتجري في الشارع ثم تختفي . .
وضاع رونق المركب في عينيها ، وفقدت اللعبة لذّتها فأمسكتها
بيدها وأغرقتها في الماء ، ثم جرّت الى الشرفة لتنظر الى الشارع
علّها تجد عربة أمّها قادمة اليها . . لكنّها لم تجد شيئاً فشبّت
على أصابعها لتري الشارع أكثر، لعلّ العربة مختبئة هناك تحت
الشرفة . . وتدلّت رأسها في الهواء دون أن ترى شيئاً . .
فعدت الى دادة فاطمة منكسة الرأس تبكي بلا دموع وقالت لها:
- عاوزة أروح لماما . . وديني يا دادة لماما «

- يا قلب أمك يا حبيبتي
ومدّت دادة فاطمة يديها المعروقتين وأخذت الطفلة بين ذراعيها
وربتت عليها .
- يا ضنايا أوديكي لماما . . حاضر أوديكي لماما .
وقامت من جلستها ولبست رداءها الاسود الذي تلبسه عند

اشروج ، وقالت لنفسها في ثورة : « حوِّديها لأمها . . بلا وجع قلب ! تشوفلها طريقة في بنتها . . هو أنا حاقعد لهم ! . . هو أنا ما عنديش قلب ! . . آمال لو ما كنتش مدرّسة قدّ الدنيا ولها ماهية تغنيها عن أي راجل كانت عملت ايه ؟ »

وكادت سوسن تجنّ من الفرح وهي تمنسك بيد دادة فاطمة وتمشي في الشوارع ، وراحت تتلقّت هنا وهناك وتنظر في كل عربة خلفها علّها تجد أمّها . . وأخيراً ذات دادة فاطمة تتوقّف أمام بيت وتدقّ الجرس . . وخفق قلبها الصغير حين فُتح الباب ورأت أمامها رجلاً طويلاً ، هو نفس الرجل الذي تراه يجلس بجوار أمّها في العربة . . وتكرهه . . وتخاف منه . . وتحسّ أنّه بانفه الطويل المقوّس كالغراب الكبير أو الحدأة التي خطفت ذات يوم كتكوتاً من فوق السطح .

ووقف الرجل الطويل في فتحة الباب يسدّها والطفلة تنظر إليه وقد تراجعت الى الوراء قليلاً . . ودادة فاطمة أيضاً ربّما شعرت بما شعرت به الطفلة فوقفت كالتمثال لا هي تدخل ولا هي تعود من حيث أتت . . ولوخيّرت بين الاثنين لعادت من حيث أتت ، فقد بدا لها الرجل غريباً عنها وعن الطفلة ، والبيت ليس لها فيه مكان . .

ونظرت الى سوسن كأنها تستشيرها الرأي ، لكنّ سوسن لم تنزحزح عن رأيها ، ووقفت تنظر من الشقّ الصغير من الباب الذي بقي دون أن يسدّه جسد العملاق الواقف أمامها . . ووقفت تنظر من خلال ذلك الفلق علّها ترى أمّها . . أو لعلّ أمّها تراها فتأخذها إليها . . لكن أمّها لم تظهر . . وسمعت صوت الرجل الأجنّ يقول : « روحية لسه ماجتس من المدرسة . »

وقالت دادة فاطمة في تخاذل : « طيب نستناها . »

ودخلت سوسن ووراءها دادة فاطمة ، وفتح لهما الرجل حجرة الضيوف .

وجلست الطفلة تتلقّت حولها في الحجرة وتنظر الى الصبور

المعلقة بالخائط .. ورأت أمها فى إحدى الصور فقامت مسرعة
الى الصورة وقالت :

- دادة .. ماما أهه ! ..

وضحكت سوسن فى سعادة وكأنها ترى أمها حقيقة ، لكنها
مالبتش أن عادت منكسرة بجوار دادة فاطمة وقد تبينت أنها
ليست صورة أمها وحدها ، وإنما يقف الى جوارها ذلك الرجل
الطويل الذي لا تعرف ستر ظهوره فجأة فى حياتهما ..

وأخيراً سمعت صوت أمها فى البيت فقفزت من الفرح وجرت
خارج الحجرة وهى تصيح : « ماما جت يادادة ! .. »

وأحتست سوسن بالدفء الذي كانت تحسّه كلما أخذتها أمها
بين ذراعيها ، ووضعت رأسها على صدر أمها وراحت ترتب
بيديها الصغيرتين على ظهرها ثم قبلت وجهها وخذيتها وشعرها ،
وأدخلت أنفها الصغير فى شعر أمها وأخذت تشمه وتقبله .

ومضى الوقت سريعاً جداً .. وأفافت سوسن على صوت دادة
فاطمة تقول : « ياللا نروح ياسوسن » وسمعت أمها تقول
لفاطمة : « خلى بالك منها كويس فى السكة يافاطمة ، وارع
العربيات »

وحملت سوسن فى وجه أمها لتفهم السبب الذي من أجله
توافق أمها على كلام فاطمة ، ولماذا لا تبقىها معها فى البيت كما
كانا دائماً .. وقالت الطفلة والدموع فى عينيها : « لا مش
عاوزه أروح البيت الى هناك .. أنا عاوزة ماما ! »

ولجأت الى الصراخ والبكاء ، وتشببت بملابس أمها ، ولكنّها فى
النهاية لم تجد بداً من الاستسلام ، وأخذت الشيكولاتة الكبيرة
فى يدها التي أعطتها لها أمها لتكف عن البكاء ، وخرجت الى
الطريق مع دادة فاطمة وهى تشعر بالحزن العميق حتى انها سارت
الى جوار دادة فاطمة صامتة واجمة ..

ووصلا البيت .. وأسرعت سوسن الى سريرها ووضعت
الشيكولاته تحت الوسادة . ثم أخذت تدور فى حجرات البيت

الواسعة الباردة لتجد شيئاً يسليها ، لكنها لم تجد شيئاً . .
الكل لا يحسّ بها . والكل مشغول عنها . . وأخيراً ذهبت الى
سريرها وألقت على قطعة الشيكولاتة نظرة يائسة حزينة ووضعت
رأسها على الوسادة ونامت .

وفي الصباح ما أن فتحت عينيها حتى تذكرت أمها ، فوضعت
يدها تحت الوسادة وتحسست قطعة الشيكولاتة ، وأمسكتها في
يدها وهي تفكر في سرّ ذلك الرجل الغريب الذي تعيش معه
أمها في ذلك البيت البعيد .

وفجأة سمعت صوت عربة فقفزت من السرير وجرت الى
الشرفة ، وشبّت على أطراف أصابعها ودلّت رأسها في الهواء
لتنظر الى الشارع . . ولم تر عربة أمها الزرقاء وإّما عربة أخرى
وقفت أمام باب الجيران . . وزاغت نظراتها الحزينة في طرول
الشارع نفتش عن عربة أمها ، وتعلقت عينها بنهاية الشارع
التي تبتلع العربة في كلّ مرة ، وانهمرت الدموع من عينيها
في ثنية الشارع . . وأخذت تنادي بصوت عالٍ باكٍ : ماما ! . .
وهي تنادي على أمها : ماما . . ماما ! . . فقد خيل إليها أنّها مختبئة
لعلها تسمعها وتخرج من مخبئها . . ولكن صوتها الرفيع كان
برنّ في أنحاء الشارع ثم يعود إليها كما هو . . وأرهفت أذنيها
لتنصت الى الصدى وقد خيل إليها أنّ أمها تردّ عليها . . ولكنها
مالبتت أن عرفت أن ماتسمعه ليس إلاّ صوتها نفسه يقول :
ماما . .

وأسندت سوسن ذقنها الصغير على حافة الشرفة وراحت
تراقب الطريق وهي شاردة يائسة . .
وأفاقت بعد قليل على عربة تدخل فجأة من ثنية الطريق . .
وخفق قلبها . . عربة زرقاء صغيرة ! . . عربة أمها نفسها ! . .
وصرخت من الفرح وقفزت الى أطراف قدميها لتطلّ برأسها من
الشرفة . .

.

لم تكن إلا لحظة من الزمن خاطفة .. برقت كنصل السيف ثم
سقطت في الماضي كأبي لحظة من لحظات العمر .. لكنها كانت
لحظة تساوى الزمن ، ضاعت فيها حياة بأكملها ..

وملا البيت الصراخ والبكاء .. ومن عيون غرقت في بحر
من الدموع انطلقت نظرات ساخطة هي نظرات دادة فاطمة
تصوبها الى الأم .. التي جلست كالتمثال لا تبدي حراكاً وكانما
قبضت روحها وهي جالسة ، وكان الى جوارها الرجل الطويل
نفسه ، جالسا ينظر إليها ويحاول من حين الى حين أن يفتصب
كلمة أو كلمتين يخفف بهما عنها ..

وكان البيت الواسع بعد أن انقطع عنه الصراخ والبكاء
يغرق في لجة من الصمت الكئيب والناس داخله إما جالسون في
صمت حزين ، وإما رائحون غادون في الحجرات الكثيرة وكانما
يبحثون عن شيء وهم في الواقع لا يبحثون عن شيء ..
وفجأة مزق السكون صوت حاد كطلقة المدفع .. والتفتوا
جميعاً في فزع نحو الأم وقد عقد الذهول ألسنتهم .. ورأوها
.. الأم نفسها .. منتصبية على قدميها كالنمرة ، ويدها اليمنى
ترتفع عالياً في الهواء ثم تسقط في قوة على وجه الرجل الجالس
بجوارها :

- أخرج برة ! .. أخرج ! .. مش عاوزه أشوفك !
كان صوتها مجنوناً مبوحاً ، ويدها طائشتان ترتفعان
وتهويان على وجه الرجل الذي تراجع الى الوراء في ذهول أجم
لسانه ..

والتفت حولها أهل البيت وأبعدها عنه .. وذهبت دادة
فاطمة الى الرجل الواقف في ذهول كالتمثال وربتت على كتفه
وقالت :

- أخرج يا حبيبي أخرج ..

ولم يتزحزح الرجل من مكانه وكأنه ثبت في الأرض
بمسامير .. ونظرت اليه دادة فاطمة في دهشة وغيظ وقالت
له في شدة : ماتحرج بقه ! .. هو أنت ايه ! »

ونظروا اليه وهو يجترّ نفسه كالمشلول ويخرج من الباب ،
ورأوا الأم تجري وتغلق خلمه الباب تم تستدير اليهم وعلى
وجهها ابتسامة غريبة تشبه ابتسامة الموتى الشاحبة قبل أن
تذهب روحهم إلى الأبد .. ولكن سرعان ما غابت الابتسامة
ورأوها تنظر كالمجنونة اليهم وتجري الى الشرفة .. وجرروا
وراءها مذعورين وجذبوها من ملابسها وأغلقوا عليها احدى
الحجرات ..

وجلسوا فى صالة البيت واجمين .. ومن خلال نسيجها
المكتوم داخل الحجرة المغلقة سمعوا صوتها وكأنه آتٍ من
بعيد : « سامحيني يا سوسن يا حبيبتى .. سامحيني ! .. »

فراغ

وضعت قدمي على سلّم صغير لأصعد فوق المنضدة الحديدية
المغطاة بملاءة حمراء من المشمّع . . وما أن استويت عليها حتى
أحسست بيد قوية خشنة تمسك ذراعي بغير رفق وتربطها
برباط من الكاوتشوك . . ثم تشدّ الرباط بقوة ، وشعرت
بألم حادّ في ذراعي انتقل سريعاً الى معدتي وأحسست بطعم
شيء غريب في جوفتي . . وفجأة . . رأيت السماء تكتسي بلون
أحمر قاني ، ثم أخذ اللون الأحمر يبهت شيئاً فشيئاً حتى
أصبح غلالة حمراء رقيقة تهتزّ مع النسيم الرقيق على نافذة
حجرتي ، ووجدتني أجلس وحدي في حجرتي . . والباب
مغلق عليّ ، أجلس على طرف الكرسي وأضغط أصابع يدي في
عصبية وانفعال ، وأهزّ رأسي في ضيق وحيرة .
لقد مللت . . مللت كلّ شيء ! لم يعد هناك شيء يثيرني ،
يحرّكني ، يهزّني ! عرفت كلّ شيء . . ومارست كلّ شيء . .
وماذا كانت النتيجة ؟ عدماً . . لا شيء ! عرفت الكفاح المرير
من أجل دريهمات قليلة . وعرفت الرّخاء والكسل والنعيم
بلا تعب ، عرفت دموع الألم والحزن ، وجربت دموع الفرح
والنشوة ، عرفت الحبّ والكراهة . . وجربت الأصدقاء والأعداء

عرفت الرجال والنساء .. ولعبت مع الأطفال لعبة الثعلب
فات فات ..

مرّت بي سنين كنت أخرج فيها كلّ صباح باكراً قبل أن
تبرّغ الشمس لألحق بأول قطار يقلّني إلى بني سويف . ولم
يكن القطار يحمل إلاّ العمّال والمزارعين والموظّفين الصغار من
الدرجة التاسعة فما تحت ، وكانت البراغيث تترك كل هؤلاء
وتقبل نحوي متبخترّة ، وتتسلّق ساقّي .. ثم تبدأ عمالها
اليوميّ كأنها موظف حكوميّ نشط .. وأبدأ أنا في القفز من
مقعد إلى مقعد وقد منعني الحياء والحفر من أن أدافع عن نفسي
بالطريقة الطبيعية ضدّ هذه الحشرات اللعينة .
وكان عملي مرهقاً ، أو لعنّه كان الذهاب إلى عملي هو
المرهق .

وانتهت سنوات الفحط هذه كما ينتهي أيّ شيء .. ووجدتني
فجأة أقوم من فراشي الوثير وأنا أثناب في استرخاء وكسل
وأنظر إلى عقارب الساعة بنصف عين .. وحينما أجد أنّ
الساعة لم تبلغ إلا التاسعة أعود فأغمض عيني وأسبح في
أحلام لذيذة .. فإن عملي ليست له مواعيد .. أذهب العاشرة
أو الحادية عشرة .. أو لا أذهب على الإطلاق .. تبعاً لمزاج
سيادتي الشخصي .. فأنا مديرة كبيرة وليس لأحد سلطان
عليّ !

لكنّ سنوات الرحاء لا تلبث أن تدبر كما يدبر أيّ شيء .
وأجد نفسي محشورة مع ركّاب الدرجة الثانية في الاتوبيس
بعد أن كنت أركب عربة خاصّة بي وأعطي لسائقها الأوامر
بأن يذهب بي حيثما أشاء .

وكانت لي صديقة حميمة عملها الرئيسيّ في الحياة هو ان
تسجّل ما يطرأ على حياتي من تغيير ، إلى جانب أعمالها الأخرى
كربة بيت لها زوج وأولاد .. وكانت تقول لي دائماً :

يا شيخه حرام عليكى ٠٠ ده أنا تعبت مش لاحقة أجري
وراكى فين والا فين ٠٠ مش ناوية تستقرى بقى ؟
كانت كلمتها هذه تثير في نفسي كثيراً من الأفكار والأسئلة
والحيرة: أستقر ٠٠؟ كيف ٠٠؟ ولماذا ٠٠؟ ومتى ٠٠؟
ثم كيف أستقر وأنا أقف على أرض كروية تدور وتلف
بلا توقف ٠٠؟ كيف لا أتحرك وقدماي مشدودتان الى شيء
يتحرك ٠٠؟
لكن صديقتى كانت مخلصه ٠٠ وكانت تحبني فلم أشأ ان
اغضبها فقلت لها : « حاضر يا عزيزتى ٠٠ ساستقر ٠٠
ولنبدا ٠ »

وكانت البداية أن عرفتنى بعريس ٠٠ فإن الاسنفرار في
راي صديقتى هو الزواج ولا شيء غيره ، ولم أكن أعرف ذلك
الا بعد أن وجدت نفسى اجلس فى حجرة الصالون فى بيتها
ومعى رجل لم أقابله من قبل ، ولم يعجبني الرجل ٠٠ لكنني
رحت مجاملة لصديقتى أفشش فى ملامحه أو فى جيبه عن
شيء يثير الاهتمام ٠٠ لكنه كان خالي الوفاض من كل شيء ٠٠
حتى عيناه كانتا خاليتين من التعبير !
لكنني رغم كل ذلك تزوجته ٠٠ مجاملة لصديقتى ٠٠ لم
أشأ أن أخيب ظنّها فى نفسها ، وفى مقدرتها على إقناعي
بالاستقرار .

تزوجته ٠٠ لاننى اشعر نحو صديقتى بعاطفة ما ٠٠
لا أستطيع ان أصفها ٠٠ ولكنها عاطفة قوية تجعلنى أفكر فى
بعض الاحيان ان أسعدها ٠٠ وأحسست أن زواجي من هذا
الرجل سيكون سبباً فى سعادتها .
لكنى لم أستطع أن أستمر فى إسعاد صديقتى كثيراً ٠٠٠
وهذا عيبي ٠٠ فانا لا أتجمل بشيء من الصبر ٠٠ وسرعان
ما يصيبنى الملل ٠٠

أه الملل ! .. هذا العملاق الفاجر فاه دائماً يبتلع في جوفه
كل شيء .. ثم يترك من حولي فراغاً كثيباً قاتلاً كأنه الموت ،
فراغ عنيد .. يتبعني أينما ذهبت .. ويطاردني بالليل
وبالنهار .. لا يخشى رهبة الحكومة وموظفيها الموقرين ..
فيتسلل الي من تحت باب المكتب وأجده مترتباً بي وأنا
أقلب الاوراق وأنجز الأعمال .

ولا تخدعه الهوايات التي جمعتها في نفسي ، فيلاحقني وأنا
الهدم أثناء اللعب والمباريات .. ويجلس بجانبى يدندن وأنا
أعزف على آلتى فتعلو دندنته الغليظة النشار على صوت
انغامى .

أستغيث منه ، وأصرخ في أذنه ، والطمه على وجهه ، واكسر
القلم في عينه ، وأقلب عليه دواة الحبر .. لكنه ثقيل عنيد
لا يفارقنى .. فالقي كل ما في يدي وأترك له المكان وأخرج
الى الخلاء لأشتم الهواء .. فاذا به يتسلل مع الهواء الى أنفى ا ..
وأخبط رأسي في جذع شجرة سميكة خشنة حتى تسيل
منه الدماء .. لكنه لا يدعني .. فليس هو ممن يرهبون
منظر الدماء .

ورأيت الناس يسـيرون اثنين اثنين .. رجلاً وامرأة ..
والتقت عيناى بعيني رجل يختلف عن الآخرين .. قلت له
« أهو انت » .. قال « نعم » ..

وسرنا جنباً الى جنب .. وعرجنا على طريق النيل ..
وهبت نسمة باردة نديّة من صفحة الماء فشعرت بالبرد ،
وأحسست بيده في يدي فنظرت اليه ، كان قريباً مني ويقع
على وجهه ضوء مصباح قريب .. وتأملت وجهه .. كان غريباً
.. لم يكن هو الوجه الذي رأيتة من قبل .. كانت عيناه
صغيرتين حمراوين .. وأنفه كبير الحجم .. وشاربه الطويل
يتدلى على حافة فمه .

ووقفت .. وسحبت يدي من يده .. وقلت له : « لنرجع
لقد أخطأت، أنك لست هو » .

وعسدت الى بيتي ، وأغلقت باب حجرتي ، وجلست على
طرف الكرسي أضغط أصابع يدي في حيرة وقلق .. وتلفتت
حولي .. كأنما افتقد شيئاً .. آه .. تذكّرت .. الفراغ ..
أين هو ؟

ولم يُمهلني .. رأيتُه يدخل منحنيّاً من فرجة الباب ..
ويقف منتصباً امامي .. أهلاً .. فراغ ! ..
وجلس الى جوارني بوجهه الجديري القبيح .. وقال لي
مشفقاً : « إنك يا عزيزتي في حاجة الى شيء جديد » .
فقلت في مرارة : « لم يعد هناك شيء جديد » .
قال : « لماذا لا تسافرين ؟ »

فلت : لقد سافرت الى كل شبر من الأرض يخطر على
بالك .

قال ساخراً : « الأرض | .. وهل تسمين هذا سفراً ؟ أنت
في حاجة الى تغيير جو الأرض .. لماذا لا تسافرين الى الزهرة؟
هيا .. هيا .. ان آخر سفينة تطير الى هناك في السابعة
مساء . امامك اقل من ساعة لتعمّدي حقيبتك ..
وقلت : « والله فكرة اعجيبه .. لماذا لم أفكر في ذلك من
قبل » .

ووجدتني بعد فليس اقف في مطار سفن الفضاء .. في
يدي حقيبتى .. وعلى وجهي ابتسامة بلهاء تنم عن أي شيء ما
عدا الذكاء أو الفهم .. ورأيت حشداً من النساء والرجال
يجرون نحو السفينة فجريت معهم .. وارتقيت بضع درجات
صغيرة ثم وجدتني في جوف السفينة ، ورأيت مضيئة حسناء
تبتسم لي وتقودني الى أريكة صغيرة ، ووضعت حقيبتى في
مكان خاص .. وجلست على الأريكة ، فاذا بي أغطس فيها

كانني وقعت في إناه من العجين ، وتلفتت حولي لأبحث عن منقذ
ينتشلني فرأيت عدداً كثيراً من الأرائك تغطس فيها أجسام
كثيرة لا تبدي ذعراً وانمسا تستلقي في هدوء . . فغطست
بدوري في صمت . . وسمعتنا صفارة رفيعة . . أعقبها صوت
نسائي رقيق يقول : « السفينة ارتفعت . سنتوقف في
الزهرة عشر دقائق لنمّون . .

ونظرت في العدسة التي الى يساري فرأيت الأرض تبعد
عنا بسرعة هائلة . . فشعرت براحة تسري في أوصالي . .
وتمدّدت في أريكتي وأغمضت عيني لأسرح ما أشاء في تلك
الرحلة الى الزهرة، وقلت لنفسى : يا لها من مغامرة . . ترى
ما شكل الرجل هنالك . . وهل عندهم حبّ . . وتركت
لخيالي العنان يرسم ما يشاء من المغامرات البريئة . .

وبعد ساعات لم أعرف عددها سمعت صوت المضيئة الحسناء
تقول : « تذاكر الزهرة . . » وأخذت حقيبتي في يدي ونزلت
من السفينة . وعلى وجهي ابتسامة عريضة جداً استعنت عليها
بكل مواهبي ، وتلفتت حولي لأجد رجلاً أو مخلوقاً في المطار فلم
أجد . . وسرت أضرب في الأرض الرملية علني أجد عربة
أو تاكسيا يقلني الى البلدة . . وقبل أن أصل الى موقف
العربات . . رأيت رجلاً يقف في وسط المطار وفي يده حقيبة
 . . وانبسطلت أسارير وجهي لا أدري كيف واتجهت نحوه
 . . ولما اقتربت منه وجدته رجلاً عادياً يشبه رجال الأرض وله
شارب صغير . . ولم أجد بداً من أن أسأله : « هل أنت من
الزهرة » فقال الرجل بصوت غليظ : « نعم » . فقلت : « والى
أين أنت مسافر ؟ » . فقال : « الى الأرض » قلت : « الأرض
لماذا ؟ » فقال وهو شارد : « الفراغ » .

وحملت في وجهه لحظة وقلت : « الفراغ . . إنه في
الأرض . لقد ودّعته منذ ساعات ، فقال غاضباً : « هراء . إنه

في الزهرة - لقد ودّعته انا منذ دقائق ا . . . فقلت له في غضب : « بل إنه في الأرض » . فقال في ثورة : « بل إنه في الزهرة ا » . . . قلت : « في الأرض » ا قال : « في الزهرة ا » . . . قلت : « في الارض ا » قال : « في الزهرة ا » . . . وصفني على وجهي ا ففتحت عيني . . . ورأيت الطبيب واقفاً بجواري يخبط بيديه على وجهي في صفعات ليّنة . . . وسمعته يناديني باسمي سهير . . . سهير . . . مبروك يا مستى . . . خلاص العملية . . .

وتقلّبت في الفراش مذهولة احسّ أنّ رأسي قد أصبح في ثقل الكرة الأرضية . . . وقلت في غضب : « في الارض ا في الارض . . . »

وسألني الدكتور ضاحكا : « ايه هو اللي في الارض يا سهير ؟ . . . » فقلت وأنا أتصاب من أثر المخدّر : « الفر . . . الفر . . . ا . . . ا . . . غ . . . »

للشحياء

كانت أنثى ، فى أنوثتها دفة ، وفى جاذبيتها لهب ٠٠
وكانت حرّة لا يملكها رجل لأنها تمتلك رجالاً كثيرين يحبونها
ولا تحبهم ٠٠ وكلما أحبها لم تحبهم ٠٠ وكلما لم تحبهم
أحبها ٠

وكانت ذكيّة لم تبع نفسها لرجل ، فكل امرأة مثلها يملكها
زوج كالأسد يراقبها ويحاسبها ، وقد يصفعها أو يركلها ثم
يخرج يشكو منها لامرأة أخرى ويبكي كالطفل بين يديها ٠٠
لم تقبل أن تعيش مع الأسد وهو يزار ، وانظرت فى بيتها
كالملكة ليأتيها الطفل الشاكي الباكي ٠٠ وكم من أطفال اشتكوا
وبكوا بين يديها ٠٠ وكانت امرأة لكنّها لم تكن نمرّة ٠٠ كان
لها قلب ينبض أحياناً وان تراكم عليه غبار الطرق المتربة
أنثى تسير فيها ٠٠ فلم يكن لديها وقت لتنفض الغبار عن قلبها
لأنها مشغولة كرجال الأعمال وملاك الاطبان ٠٠ تمتلك أطيانا
من الرجال لا حدّ لها ٠٠ من كلّ صنّف ، وكلّ طبقة ، وتعرف
كيف تجعلهم يضعون رءوسهم على حجرها ويتنفسون بهدوء
واستسلام ثم يذرفون الدموع ويشتكون ٠

ولم تكن نسمع شكواهم لأنها كانت تسرح دائما ، تنظر
بطرف عينها الى الحياة باستاذية وكبرياء، فالحياة تحت قدميها
.. كل شيء فيها موجود عندها في العربة .. في السلاجة .
في الدولار .. على الرف .. او في جيب رجل . كل شيء سهل
الحصول عليه من أي مكان قريب أو بعيد . ليست في الحياة
مسافات ولا مستحيلات عندها .. الحياة التي تذل الملايين من
النساء مثلها وتربطن في البيوت كالماشية يغسلن جوارب
أزواجهن ، وتنصهر بشرتهن الرقيقة أمام نار الطهو والشاي ..
وبعد أن يلتهم كل زوج الطعام الشهوي ، ويبدل الجورب المتسخ
ويصدر الشخطة أو التكشيرة يفر من البيت والزوجة الى الحياة
.. اليها ..

وتتلقاهم باسمه ناعمة معطرة . فهي لا عمل لها إلا أن
تترزين وتتعطر وتلك ساقها ويديها .

وكم تمت هذه الحياة الحاملة بلا واجبات من زمن طويل
حينما كانت في السابعة عشرة من عمرها فتاة صغيرة تتعلم
الآلة الكاتبة لتحصل على عمل .. وفي أول شهر قبضت فيه
ماهيتها خفق قلبها ولعت عينها من الفرح وهي تخفي الستة
جنيهات بعد أن عدتها عشر مرات في بطانة حقيبتها ، وضغطت
عليها تحت أبطها حتى لا يخطفها أحد الصبيان الذين يقفزون
على سلم الترام ، وأول ما وصلت بيتها أخرجت الجنيهات الستة
لامها وهي تنظر في عينيها لتشبع نفسها من السعادة الضخمة
التي تحسها وتراها ، واغرورقت عينا أمها بالدموع وهي
تحتضنها وتقبلها قائلة . « ربنا يخليك يا فريدة يا بنني ..
خلاص ربنا فرجها علينا وعوضنا بك عن المرحوم »

ومن يومها وفريدة تحس أنها تفتح بيت المرحوم أبيها ،
وانها تعول أسرتها ، وأصبحت تثق في نفسها كما يثق في
نفسه أي رجل يفتح بيتا ويعول أهرة .. ورفعت رأسها وهي

تمشي لنشعر العالم أي مسنولية ثرعاها وأي أهمية لوجودها
•• وحينما كان يعاكسها في الطريق شاب رقيق كانت تنظر
اليه شزرا كأنها تتعجب من جرأته على معاكستها هي التي
تقبض ماهية وتعول أسرة •• أو حينما توشك على دهسها عربة
تتعجب كيف لا يحترم الناس حياتها ويقدرّون وجودها لأنه ان
ضاع يضيع معه وجود أسرة بأكملها ••

ولما بلغت فريدة العشرين من عمرها ، واشتدّ بروز نهديتها
وضمور خصرها •• تحت الفستان البسيط الذي تلبسه في

المكتب كل صباح ، لاحظت أن سكرتير « سعادة البك » يطيل
اليها النظر وهي تكتب على الآلة الكاتبة ، واختفت لهجته
الحسنة الآمرة التي عمّودها عليها بصفته رئيسها المباشر ••
وكأي أنثى فهمت بغريزتها السبب ودبّ الحماس الدافئ في
داخلها ، وجعلها تتمشى بخطوات أخفّ وأرشق •• وفي بيتها بعد
أن تاكل ما أعدته أمها تذهب الى سريرها ، وتمتدّد ساقها ،
لتقضي ساعة أو أكثر في تخمين لذيذ عما سيكون سبباً لهذه
الرقّة الجديدة ••

ولم تعش أياما كثيرة في لذّة هذا التخمين إذ أصبح السبب
مؤكدا واعترف لها السكرتير بحبه في ليلة مقمرة بجانب
النيل ، وتذوّقت طعاما جديدا لم تعرفه من قبل •• طعام
الرجل •• أنفاسه وعرقه • ولم يعجبها هذا الطعام أو لم يكن
في مستوى خيالها الحصب، واحسنت أن الواقع صغير بالنسبة
للخيال، لكنّها قنعت به وظننت انها لن تجد واقعا خيرا منه
•• فهو رجل مثل كل الرجال وهو رئيسها ••

وبعد أيام قليلة اعتادت هذا الواقع والفته ، وأصبح أجمل
مما كان •• ولم تتصوّر أن هناك سعادة أكثر من أن تتزوّج
هذا السكرتير لولا أنها اكتشفت سعادة أكبر •• إذ تغيب
السكرتير يوماً عن العمل ، واضطرت الى القيام بأعماله ،

ودخلت حجرة « سعادة البك » لأول مرة ، وتعثرت قدماها في
السجاد الفاخر ، ولم تجرؤ على التدقيق في ملامح « البك » ،
لكنها رأت ابتسامه على شفثيه .. ابتسامه رقيقة .. وبعد
هذا اليوم أصبح « البك » يطلبها الى حجرتة ، ويكلفها بأعمال
ليست من اختصاصها .. وبعد انتهاء العمل فى أحد الأيام
لمحت « سعادة البك » وهو يركب عربته ، ولم تتوقع أن
يناديها بالاسم ، ويدعوها للركوب معه قائلا :

- بيتك فين يا فريدة ؟

وتلعثمت وهي تقول :

- فى العباسية ..

وابتسم وهو يفتح لها باب العربة قائلا :

- تعال .. تبقي في سكتي وأنا طالع مصر الجديدة ..

ودكبت الى جواره ، وهي تلتصق بباب العربة لتحصل على
أكبر مسافة بينه وبينها ، وأطرقت وهي تفرك أصابعها ..
إنها اول مرة فى حياتها تتركب عربة ملاكى .. وبجوار من ؟
« سعادة اليك » .. رئيس رئيسها ، وصاحب الجاه ، والمال ،
والمكتب ، وكل شيء .. ولم يساورها شك فى أن تصرفات
اليك معها ماهي إلا اشفاق عليها ، وخصوصا وهي كما وصفت
لنفسها فى طلب العمل يتيمة الأب وتعول أسرته ..

ولم يدم يقينها بهذا الإنسفاق طويلا ، اذ بعد ثلاثة أيام
بالمعد ، كانت تتركب بجوار البك ، ولم تكن تلتصق بالباب
خجلا وانما كانت تلتصق بالبك نفسه الذى حوطها بذراعه
وبين كل عمودي نور يميل عليها ليأخذ قبلة .. وكانت فريدة
تنظر الى ما حولها كأنها عمياء أو نائمة تحلم .. وأوقف البك
العربة فنزلت ، وانحنى أمام المصعد لتدخل أمامه فدخلت ..
وصعد المصعد الى أعلى كأنه يصعد الى السماء ، ثم وقف وخرجت
أمامه .. وأخرج البك من جيبه مفتاح شفتة ، وفتح الباب

وانحنى لها لتدخل امامه فدخلت . .

لم تدر فريده كيف فرطت في نفسها مع عدا البك رغم ان السكرتير لم يستطع ان يأخذ منها شيئاً . . لكنها كانت لا تستطيع ان تخالف البك او خيل اليها انه شرف عظيم لها ان تنام في احضانه على فراشه الوثير . . ولم تعرف قيمة مامنحته له من نفسها الا بعد شهر كامل ، بعد ان ملها البك ولم يعد يوصلها الى البيت او يعطيها مواعيد لتلقاه بالليل كما كان يفعل . . وعادت فريده منكسرة الى مكانها على الآلة الكاتبة بجوار السكرتير . . وتباعد عنها السكرتير اياماً قليلة ، ثم عاد يبثها غرامه ، فعادت اليها ثقتها بنفسها وبكت على صدره وهي تحكي له قصتها مع البك بالعكس . . قالت ان البك احبها وظل يغريها لكنها لم تحبه لانه سمين وله كرش ثم تركها بعد ان يئس منها . . واحسنت بالزهر وهي تحكي ولو بالكذب عن انتصارها على البك وزاد زهوها حينما لمحت معالم التصديق في عيني السكرتير . .

وعرفت ان السكرتير لن يتزوجها لانه متزوج ولهذا لم نلتزم معه العفة والادب، وتعمدت ان تكون مستهتره، فهي تقبله مره . . وتهجره مره . . وتحكي له بالكذب عن مغامراتها مع رجال آخرين لتعذبه وتهزأ من رجولته . . وهي في الواقع تتمرن على الخلاء وتجرب معه الحياة المستهتره بلا خلق . . ولعل تجربتها السافرة هذه هي التي افهمتها سر الرجل لانها كانت تقلبه وتفتش فيه بجرأة عن نقط ضعفه . . لذلك حينما سكن الى جوارهم ذلك الشات الطيب الذي تخرج من معهد التربية واشتغل مدرسا استطاعت فريده في الدقائق التي تمكثها في البيت ان تجذب عينيه اليها ثم تجذبه كله بعد ايام ليطلب يدها من امها . . وقبلت فريده الزواج بلا تفكير . . لانه شيء جديد لم يحدث لها من قبل . . فقد عاشت مع البك في شقته

أياماً طويلة لكنّها لم تعتبر ذلك زواجاً .. لأنّها تريد أن يعرف
الناس أنّها تزوجت .. أن يصبح لها زوج وبيت وأولاد .. أن
يكون لها رجل تضع يدها في يده في ضوء النهار كالنساء
الشرفاء، لا أن تتلصص معه في الظلام كالمشبهوهين .
وحيثما جلس الشاب الطيب أمامها ، وأخذ يدها في يده
أغرورقت عيناها بالدموع ... دموع الحب .. وأحسّت لأول
وهو يردد وراء الشيخ العجوز : « لقد قبلتكَ زوجتي يا فريدة ،
مرة في حياتها إنّها تحب هذا الشاب الطيب الذي يعلن زواجها
أمام كل الناس بصوت عال ..

ودخلت معه بيته لأول مرة وهي نحسّ أنّها ستبذل حياتها
أرضاء لهذا الزوج الطيب وإن تخلص له كلّ الإخلاص . لكنها
لم تستطع .. إذ شعرت بعد أيام قليلة أنّ أمنيتها تحققت وإن
الناس عرفوا أنّها تزوجت ونادوها بالعروسة ثم كفّوا عن
النداء .. وانتهى الحماس الذي كانت تحسّ به نحو هذه
الحياة الجديدة ، ولم يعد عندها للزواج معنى بعد هذا سوى
ذلك الزوج البارد الذي يتحرّك في البيت بشبهه البطيء البليد
فيشير في نفسها شعوراً بالكآبة كأنّها تعيش في قبرٍ وتدفن
معها حيويّتها وذكائها وجاذبيّتها .. وحيثما كان يجلس زوجها
معها ، يتكلّم ويرى لسانه وهو يخرج ويدخل ، ولعابه
الأبيض وهو يتجمّع عند زاويتي فمه تشمئز من حديثه وغبائه
وتثور فيها نيران التمرد على هذا القيد السخيف وتناجج
رغبتها في الانطلاق .. في الحرّية .. في الاستهتار . في أنّ
تعيش كلّ لحظات يومها وليّتها .. أنّ تنشر جاذبيّتها أمام
الرجال وتستمتع بما تراه في عيونهم من رغبة ولهفة ..

وصمّمت على أن تطلق هذه الحياة الراكدة ، فهي لا تؤمن
بالزواج أيّاً كان ، ولا تحتمل أن تبيع انوثتها ومواهبها لرجل
مقابل لا شيء سوى قيود واحتسّكار والتزامات هي في غنى

عنها . .

وعادت فريدة بحقيبة ملابسها الى بيتها . . وقابلتها أمها
بالدموع . فالأم لا يفجعها شيء مثل طلاق بنت من بناتها . .
ومسحت لامها دموعها وهي تبتسم ، وقالت لها إنها هي التي
طلقت زوجها لأنه أناني أراد أن يستولي على كل ايرازها ولا
يترك شيئاً لاسرتها . .

وتنفست فريدة بهدوء كأنها أوقعت عصفورين بحجر واحد
. . وجففت امها دموعها وهي تدعو على الرجل الأناني المخادع
وتقبل ابنتها في حب وامتنان وهي تقول : ربنا يسعدك يابنتي
ويعوضك . . طول عمرك بتضحى علشاننا . .

وعادت فريدة الى حياتها الأولى . . عادت رب البيت الذي
ينفق ويدبّر ويدخل ويخرج بلا حساب . . وعادت اليها ثقتها
بنفسها وشعورها بأهميّة وجودها . . وعادت حرّة لا يمتلكها
رجل . . وتمتلك رجالاً كثيرين يحبونها ولا تحبهم . . وكلما
احبوها لم تحبهم وكلما كرهتهم احبّوها . لكنّها تعرف كيف
تجعلهم يضعون رؤوسهم على حجرها ويتنفسون بهدوء . .
وأصبحت الحياة تحت قدميها . . كل شيء فيها موجود عندها في
العزبة أو في الثلاجة أو في الدولار ، أو في جيب رجل . .
لبس في الحياة مستحيلات عندها .

ورغم كل هذا لم تكن نمرّة دائماً . . . كان لها قلب ينبض
من تحت الغبار الذي تراكم عليه . . وحينما تحسّن بقلبها وهو
ينبض تتطلّع حولها كالشدهوة وتموت الابتسامة الدائمة على
شفتيها ، وتضع يدها على قلبها وهي ترى الحياة أمامها ضخمة
كالعملاق وهي تحت أقدامه لا تستطيع أن تلمسه . . لكنها
تحاول أن ترى شيئاً . . فتتنظر من بين أقدامه كالشاردة الى
نفسها . . الى حقيقتها . . فتحدّها ، لا شيء .

مبيناً أكون ناضرة

جلست على المفعد الخشبي المؤلم وأسندت ذراعي التي تحمل رأسي على مكتبي ، واخذت أفكر رغم أنني ٠٠ ورغم أنني عاهدت نفسي على ألا أفكر ، وأن أشتغل في هذه الوظيفة كما يشتغل الناس ، لكنني في هذه اللحظة شعرت بالعجز الكامل عن مقاومة التفكير ، فالأشياء التي تعيش داخل رأسي أحس لها دبيباً وأسمع لها همساً عالياً يكاد يفلق رأسي نصفين . . .

واستسلمت في ضعف لأن أفكر ، فوضعت الملفّ الغليظ في درج المكتب وأغلقت القلم الحبر ووضعت في حقيبتي ، وأعطيت ظهري للرجل الذي يجلس بالقرب مني لأحجب عن عيني رأسه الغليظ ولأبعد أذني عن صوته الأجنس .

واخذت أفكارني تتقاذفني بسرعة هائلة وأنا بينها أدور وألف كأنني داخل تروس ساقية تدور وتثن وتزن .

وسمعت الأشياء التي تعيش في رأسي تدبّ من فوقني وتقول: « ما هذا الذي أعمله ؟ هل هذا هو طموحي ؟ هل هذه هي آمالي ؟ لاشيء ! واحدة من الناس ٠٠ من المسلايين ٠٠ اجلس على هذا

المكتب الخشبيّ ستّ ساعات متواصلة أقوم فيها لأتمشي مرّة أو
مرتين لالين مفاصلي ثم أجلس ثانية ٠٠ لو متّ هذه اللحظة فلن
يفقد العالم شيئاً يذكر، بل لعلّه سيزيد مقعداً خالياً للآلاف
المنتظرين على الأبواب يطلبون الشغل ٠٠ لن يشعر العالم بفقدي
أبداً ٠٠ ربما سطر أو سطران في ذيل جريدة لا يقرأهما إلا بعض
الموظفين المحالين الى المعاش ،

وأحسست بوجوم يجثم على صدري فأغلقت درج مكتبي
بالمفتاح وأخذت حقيبتى وخرجت الى الشارع ٠٠ وكانت السماء
تمطر رذاذاً خفيفاً وهواء الشتاء يهبّ بارداً يلفح وجهي ويصيب
جسمي برعدة تصطكّ لها أسناني ٠٠ ووضعت يدي في جيبي
لأدفئهما وسرت أنظر الى العربات الفاخرة وهى تجري ومن داخلها
رجال ونساء لا يشعرون بالبرد وينظرون اليّ من وراء الزجاج
المحكم في تعال وكبرياء بلا إشفاق على حالي وأنا أصارع المطر
الذي بدأ ينهمر ثقيلاً على رأسي فيفسد تسريحة شعري التي
دفعت فيها بالامس ثلاثين قرشاً اقتطعتها بمشقة من ميزانيسة
الأكل ٠٠

وضعت حقيبتى على رأسي ونظرت شزراً الى امرأة تجلس
كملكة في عربة طويلة جداً ٠٠ وقلت لنفسى إنها عربة زوجها
بلا شك تأخذها منه في الوقت الذي يعمل فيه لتذرع بها الشوارع
من أجل لا شيء ٠٠ إن شكلها لا يدلّ على أنها تشتغل شيئاً وإنما
أحد يشتغل من أجلها ٠٠ لا يمكن لهذه المرأة أن تصحو من النوم
قبل الحادية عشرة صباحاً ٠٠ ايّ لذّة تلك التي تجدها في الراحة
والكسل !

ومضيت أفكر ٠٠ وخطرت لي فكرة غريبة ٠٠ ساستقيل من
عملي وأبحث لي عن زوج يشتغل من أجلي وأنا من أعمى العاشرة
صباحاً ٠٠ لقد تعبت من القيام مبكرة ٠٠ ماجدوى كل هذا العناء

الذى أنا فيه ؟ لا شيء ! حتى المأكولات التى اشتيتها وأنا تلميذة
صغيرة لا أستطيع أن اشتريها .

وأحسست ببرودة أخرى غير قطرات ماء المطر تتساقط على
رأسى وأنا أشعر بطموحي وآمالى واحلامى كلها تتقلص وتنكمش
لتنحصر فى هدف واحد هو العثور على زوج . .

وأسرعت الى بيتى وقد غمرتنى الفكرة الجديدة بنوع من الحماسة
.
وحيثما وصلت الى العمارة رأيت عربة خضراء طويلة تقف
وتنزل منها فيفى
ورأيت البواب يقف لها فى احترام وإكبار
ولا يكاد ينظرالىّ وفتح لها باب المصعد فدخلت أمامى
ودخلت
وراءها
كانت فيفى ممثلة ناشئة لم تشتهر بعد ، لكنها كانت
تستأجر شقة بأربعين جنيهاً ، خمس غرف ، وكنت أنا أعيش فى
غرفة واحدة بعشرة جنيهاً ، ولا يتبقى لى من المرتب الا ستة
جنيهاً تقريباً أنفها فى الأكل والملبس والمواصلات
ولا يبقى
لللبواب الا عشرين قرشاً أدفعها له فى أول كل شهر فى خزى
شديد فيرشتنى بنظرة احتقار بالغة وأبلغ ريقى وأقول له :
« معلمش يا عم محمد ، أن شاء الله فى الشهر الجاى أزودك ،

وتمرّ الشهور نلو الشهور ولا أزيد شيئاً بل لعلى كنت أنقص
وزناً

وقلت لنفسى وأنا ادخل شقتى سناستقيل من شغلى وأصبح
ممثلة ولم لا ؟ انه أسهل طريق للحصول على الفلوس واحترام
الناس أسهل من الحصول على زوج !

ونظرت الى المرأة أتأمل ملامحى واتخيّل نفسى على الشاشة
أمثل الناس يتفرّجون وأخذت أفتح فمى وأغلقه ، وأنظر
نظرة غرام مرة ونظرة عتاب مرة ونظرة انتقام مرة مدهشاً ،
ورضيت على نفسى إننى أصلح للتمثيل ، يا للغباء ! كيف ضللت
طريقى ودخلت كلية الطب ؟

وخلعت ملابسي ولبست ملابس النوم ودخلت السرير دون أن
أكل ، إن نفسي مصدودة بعد أن انتشيت من بريق المجد والجاه
والشهرة التي رسمتها لحياتي المقبلة . وغلبنى النوم فنمت . .

ولم أدر كم مضي من الوقت ، لكنني صسحت على صوت طرق
شديد على باب شقني ، فقامت مذعورة لأرى من الطارق ، ورايت
عم محمد البواب يقف لاهثاً ويقول لي في استعطاف : « والنبي
يادكتورة عمايدة الست فيفي تعبانة جوى وطالبة حضرتك دلوقت ،

ووضعت على كتفي روبا صوفياً ، واخذت حقبتي وصعدت
مع البواب الى شقة فيفي . . وهناك على السرير الناعم الذي يبرق
بالحرير من فوق ومن تحت رأيتها . . فيفي . . التي سحرت لبي
بعربتها وملايسها ومالها تنام امامي وحول عينيها هالتان سوداوان ،
وعلى وجهها صفرة بائسة . . كانت ترتجف وتئن . . ولما رأته
قالت في استعطاف : « أرجوك يادكتورة انا عيانة خالص .
عندي صداع وحرارة وجسمي كله بيرتعش ، أرجوك تكشسي
علي » .

وجلست بجوارها ، وامسكت يدها لأعد نبضها . . ومضت
لحظة صمت رهيبه كتبت فيها فيفي أنفاسها ، ووقف البواب
خلفي ، وأحسست كأنه من رهبة الموقف كتتم هو الآخر أنفاسه
ووقف في خشوع وإجلال . .

ومددت يدي في ثقة ووضعت السماعه في أذني . . ونظر
البواب الى الآلة الصغيرة في خشوع كأنه ينظر الى شيء سحري
إلهي فوق قدرته البشرية . . ثم استدار وأعطانا ظهره متأدباً ،

وتركت فيفي صدرها تحت سماعتي في استسلام ، ونظرت
الي في ثقة وإجلال كأنني قادرة على منحها الشفاء في اللحظة التي
أسمع فيها دقات قلبها . . وأتممت الفحص ، وكتبت لها العلاج
ونصحتها بما يجب أن تتبعه . .

ورأيت فيفني تبتسم في راحة وأنا اضع اذراتي في حقيبتى
وأخرجت من تحت وسادتها كيساً ومدت لي يدها بجنيهين...
لكن تراجعمت في إباء وكبرياء وقلت لهاً باسمة : « لا مش
معقول ، ده احنا جيران »
نظراي البواب مندهشاً ثم اسرع فحمل عني حقيبتى وسار
خلفي في خشوع .
وعند باب شقتى أخذت منه الحقيبة ثم أغلقت بابى . . . وذهبت
الى فراشي لا أكمل نومي ، وابتسمت لنفسي في سعادة وأنا احس
بدفء السرير . . . ونمت احلم بورقتين ناعمين كلّ منهما تساوي
جنيهاً .

قصه من حياة طبيبة

كتبت الطبيبة « س » في يومياتها تقول :
التقطت نظراتي المرهقة ، نظراتها الفزعة القلقة في استنجاحها
المكتوم ، وفي حيلاتها الهائلة ، وكأنها بعينيها الصغيرتين الزرقاوين
وهما تتفحصان وجهي وتبحثان في أعماقي عن شيء من الرحمة
والإشفاق . . .

وأحسست أن ارهاق جسمي من كثرة العنل بدأ يتبدد سريعاً
وأنّ نشاطاً جديداً اجتاح أعماقي . . . وكأنما أحسست نفسي أنها
على وشك أن تعطي شيئاً من ذاتها ، أو أن تمنح شيئاً لصاحبة
هاتين العينين المستغيثتين ، فأخذت تمسحني نفسها بطاقة جديدة
استعداداً للبلبل . . .

وجلست الفتاة المتهالكة أمامي ونظراتها متشبّثة بوجهي
لاتتحوّل عنه مما جعلني لا اتنبّه للرجل الطويل العريض الواقف
بجوارها . . . والذي فطن إلى أنني لم أراه فأراد أن يشعرني بوجوده
فقال بصوت له نبرة مثقفة لم تهذب من غلظته وخشونته :

- أرجوك يادكتورة إن تكشعي على اختي . أريد أن اطمئن
عليها وذلك لأننا سنزوجهما في الاسبوع القادم لابن عمها . . .

ولا أدري من أين جاءت الشجاعة فسمعتها تقاطعه قائلة:
- أنا لا أحبه ! .. ولا أريد أن أتزوجه !
ونظرت إليّ في استعطاف :
- لا أحبه يا دكتورة !

وأشار لها الأخ في شدة أن تصمت وقال محتدًا .
- إنها لا تريد أن تتزوج لسبب آخر يا دكتورة .. أظنك
تفهمين . أرجوك الكشف عليها لتطلعيني على الحقيقة ..
وعادت العينان الصغيرتان الزرقاوان تفرعان في قلق
واستنجاد مكتوم .. وأخذت أنظر في أعماقها لعلّي أمتددي إلى
خيوط القصة لكنني لم أجد فيهما إلا فزعا وقلقا ، وأسترحامًا ..
وكنت على وشك أن أقذف في وجه الأخ برأيي .. أن أقول له :
- متأسفة ياسيدي .. أنا لا أستطيع الكشف عليها من أجل
هذا الغرض .. إنّ الطبّ لم يعمل من أجل هذا .. ثم إنّ هذه
المسألة شيء يخصّها وحدها ولا داعي لك كإخ أولي كطبيبة أن
تتدخل .

وكانما أحسّنت الفتاة بما براودني فإزدادت بطراتها تشبّثًا
بي وكانها تقول لي :

- أرجوك .. لا تتخلي عني .. سيذهب بي إلى طبيب آخر
ووقفت وقد عزمتم على أمر . وقلت بلهجة الطبيب حينما يقرّر
أمرًا ، وليس هناك من قوّة تستطيع أن تقف أمام الطبيب حينما
يعزم في نفسه أمرًا :

- تسمح تجلس في الخارج قليلا حتى انتهى من الكشف
وأصبحت أنا والفتاة وحدنا .. ونظرت إليها .. وشجعتها

نظراتي المشفقة الرحيمة على أن تنظر إليّ في اطمئنان ، قالت في
استعطاف :

- أرجوك يادكتورة .. ارحميني من هذا الاخ، سيقنتلي !
واقتربت منها قليلا فرأيتها تنظر الى يدي في فزع وتقول :
- هل ستكشفين عليّ ؟ أرجوك .. لا أستطيع ! لا أستطيع !
ووضعت يدي في جيبى المعطف الأبيض لاطمئننها وقلت لها
وانا اجلس الى جوارها :

- لا تخافي .. لن اكشف عليك .. ولكن قولي لي الحقيقة .
وسوف تكون سرّاً ، لن ابوح به لاحد أبدا .
قالت :

- لا احبه يادكتورة .. ولا أريد ان اتزوجه ..
ونظرت اليها وابتسمت ابتسامة ذات معنى .. فقالت :
- ولا احبّ رجلا آخر ..
واحسست أن الفتاة لاتقول الحقيقة ..
ووضعت رأسي بين يدي وفكرت .. إنني لن اكشف على الفتاة
لان هذا ليس من حقّي الا اذا طلبت مني ذلك .. وهي لم تطلب
بل إنّها ترفض !

واخذت انظر الى ملامح الفتاة لعليّ انزع الحقيقة منها ، ولكنني
سرعان ماتراجعت وقلت لها :

- حسناً يافتاتي الصغيرة .. ساخبر اخاك أنّني لا شان لي
بهذا الموضوع

ورأيت الفتاة تقبل نحوي في دعر واستعطاف :

- لا .. لا .. أرجوك سيذهب بي الى طبيب آخر قد يكون
وظلاً .. قولي له إنك كشفت عليّ .. وانني فتاة شريفة .. هذا
شيء يسير عليك يادكتورة .. مجرد كلمة تتفوهين بها تنقلني

بها حياتي .. إن أخي رجل قاسٍ ، إنه سيقتلني ! ارحميني
يادكتورة !

سأقول لك الحقيقة .. اننى احب رجلا آخر .. وهو يحبني
وقد اتفقنا على الزواج فى الشهر القادم .. أقسم لك إنه لم يحدث
بيننا شيء مغلّ بشرفى !

ونظرت الى العينين الزرقاوين المسترحمتين وكأنما تؤكدان لي
أنها على حق ..
وابتسمت لها وكأنني أؤكد لها أنها على حق .. ولكن ..
ولكن ماذا ؟

سألت نفسى .. وسألت ضميرى .. وراجعت كلمات القسم
الذى رددته فى أول يوم مارست فيه عملي .. واستعدت فى
ذاكرتى قوانين الطب ..

ولم أشعر إلا وأنا أتجه الى الباب فافتحه ، وطلبت من أخيها
الدخول ، وقلت له فى ثبات وقوة :
- ان أختك فتاة شريفة !

قلتها وأنا أؤمن بعقلي ووجداني وانسانيتي أنها شريفة .. إن
الطب يستطيع فقط أن يفرق بين المرض وغير المرض .. ولكن
لايستطيع أبدا أن يفرق بين الشرف وغير الشرف ..
وارتسمت على ملامح الأخ الفجّة ابتسامة لم تكسبها الثقافة
من الهدوء المعقول ، ابتسامة عريضة .. كأنه بهذه الكلمات قد
اطمأن على شرفه أو استردّه ..

وقلت له وقد انفعلت بالشعور الجديد :
- أظن أنه من اللائق أن تعتذر لأختك عن شكك فيها ..
واعتذر لها وهو بنظر إليها فى سعادة ريفية مساذحة ثم
أخذها وخرج ..

ووضعت رأسي على كتفي .. أفكار شتى تعصف برأسي ..
ولم أشعر بيدي وهي تزحف الى درج المكتب وتسحب منه
ورقة بيضاء وقلماً .. وكتبت ورأسي مازال ثقيلاً .. كتبت
قسماً جديداً وهو :

« أقسم أن تكون إنسانيتي وضميري هما قانوني في عملي
ولني .. »
ووضعت القلم .. وأحسست براحة لم أشعر بها منذ فترة
طويلة .

سن أبعل سن؟

دقّ جرس التليفون بجوار راسي حادًا صارخًا ، ملحًا ،
لنتقلبت في فراشي أبعد رأسي عنه .. اهرب منه ، ولكنه ظلّ
يهلر في سكون الليل يعزّق من حولي ستائر النوم المخسرة
اللذيذة .. يلاحقني كلما هربت منه .. وامتدت يدي بلاإرادة،
ورفعت المسامع الى أذني وقلت وأنا أتثاب :
- الو ...

وجاءتني حشرجة خسنة تبينت فيها صوت رجل يقول :

- الدكتور موجودة .

- أيوه .

- أرجوك . اسعفيني . أنا مريض .

- أين تسكن ؟

- شارع الجيزة رقم كذا ٠٠

- حاضر ، سأتى ، اليك حالا .

قلت الجملة الاخيرة بلا تفكير ، وخلعت ملابس النوم، وارتديت ملابس الخروج وأخذت حقيبتى المعدّة ، وخرجت الى الشارع ٠٠ وركبت سيارتى الصغيرة واتجهت الى الجيزة ٠٠ وكنا فى فبراير والجوّ قارس البرد ، والليل شديد الظلمة بلا قمر ، ولا أكاد أرى طريقى إلا من خلال أنوار المصابيح المتناثرة بعضها منير ، ومعظمها مطلقاً لا أدري لِمَ ٠٠٠

وضغطت بقدمى لأطلق العنان للسيارة فانطلقت بى كالطائرة ووجدتني بعد دقائق قليلة فى شارع الجيزة ٠٠ ووقفت فى عرض الشارع لاهثة ووضعت يدي على قلبي فى أسى ٠٠ آه ٠٠٠ لقد نسيت رقم بيت المريض ٠٠٠ وأخذت أستجمع ذاكرتى وأركزها فى الكلمات التى سمعتها من المريض لكى أذكر الرقم الذى قاله لى دون جدوى ٠٠ كأنما أصبح عقلي مادة صلبة من الحجر لاتعي شيئاً ٠٠٠

وسرت بالعربة يائسة تائهة ٠٠٠ أتخيّل الرجل المريض وهو ينتظرني بين لحظة وأخرى وأنا لا أجيء ، ويظنّ أنّى تلقيت استغاثته ثم استسلمت للنوم ، ولا يعلم أنّى ربّما أمرّ من أمام بيته دون أن أعلم ٠٠

وفجأة من بين يأسى وحزني لمحت نوراً خافتاً فى احدى النوافذ فحقق قلبي من الفرح والأمل وقلت لنفسى : هو ا ٠٠ المريض ينتظرني ! من غيرهِ يستطيع أن يسهر الى هذا الوقت من الليل ؟

ونظرت الى ساعتى كانت الثالثة صباحاً فانطلقت بعربتى تجاه النور ، وأوقفتها أمام البيت ، وصعدت السلم ، ووضعت

يدي على الجرس ، وقبل ان أضغط على الجرس أحسست بهاتف
من أعماقي يقول لي وماذا لو لم يكن بيت المريض ؟ .. وخفت
من المغامرة ، وهممت بأن أعود أدراجي ، لكنني تذكرت صوت
المريض الضعيف الحائر ، وتخيلته جالساً ينتظرني ، فاندفعت
الى الجرس وضغطت عليه بكلّ قوتي .. وسمعت صوت أقدام
تقترب من الباب ، ورأيت « الشراعة » تفتح ويطل منها رأس
امرأة مشعث .. ونظرت إلى المرأة في دهشة كبيرة فقلت لها على
الفور : متأسفة .. هل يسكن هنا المريض الذي ..»

وقاطعتني المرأة في صوت حاد مستنكر : « مريض !؟ »
ورشقتني بنظرة ارتياب بالغة فاعتذرت لها بسرعة ، وهرولت
الى السلم أجري ، وقد أحسست أنها ستجري خلفي وتمسكني
من ملابسي ..

وركبت عربتي وعدت الى شارع الهرم أسير على مهل وفي قلبي
ثقل كبير .. ووصلت البيت ، ووضعت مفتاح الشقة في الباب
ودخلت ، فاذا بي أرى زوجي واقفاً في الصلاة ولما رأني أقبل عليّ
وسألني قائلاً : « أين كنت ، لقد استيقظت بالصدفة فلم أجده
.. أين كنت ؟ »

وحكيته له القصة من بدايتها ، منذ سمعت المحادثة النليغونية
حتى ضغطت على جرس البيت المجهول ، ولاحظت أن أنفاسه تعلق
وتهبط ورأيته ينظر إليّ في دهشة وفزع وسألني :
- ومن الذي فتح الباب ؟ رجل أم امرأة ؟ ..

ونظرت اليه في أسى وقلت :

- لم يكن هو بيت المريض .
لكنه لم يأتبه لكلامي وأعاد سؤاله قائلاً :
- رجل أم امرأة ؟

قلت وأنا شاردة :

- امرأة •

فهدأت ملامح وجهه وعاد ليواصل في راحة بال واطمئنان •
وجلست في الصالة أفكر ... أشياء كثيرة ترتطم برأسي
وتسبب لي الما •• ولم أدر إلا ونور الصباح يملأ المكان وأنا أجلس
وقد غلبتني سنة من النوم تشبه اليقظة ...
وانقضت على تلك الليلة أيام كثيرة خلعت أنني نسيتهها ...
حتى كان يوم كنت أجلس في عيادتي وقال لي التمرجى إن رجلاً
يريد مقابلتي ... ودخل الرجل ، ورايته ينظر إلي متعصفا ثم
قال :

- حضرتك الدكتور سعاد •

- أيوه •

فمصص شفتيه وقلبيهما وسكت قليلا ثم قال :

- حضراتكم عاملين دكاترة ؟

ودهشت لهذا الهجوم المفاجئ وقلت في فزع :

- ماذا تقول ؟

فقال في ثورة :

- أنا كنت على وشك الموت ، ولا دكتور واحد رضى يسعفني ،
وفضلت للصبح لغاية ماجانى دكتور •• لكن بعد ايه ؟ حتى انت
يادكتور قلت لي انك جاية وكذبت على ؟

وترددت قليلا في أن أحكي له القصة ثم رويت له ما حدث •
لكنه لم يصدقنى وخرج وهو يقول :

- طبعا ، كل الدكاترة يقولوا كده ، -

وجلست ، وضعت رأسي على كفي ، وفي قلبي ألم يعتصره بلا
رحمة أو شفقة وقلت لنفسي في أسى ما من أحد عرف
الحقيقة . لقد ارتابت المرأة التي فتحت لي الباب في أمري . .
وارتاب زوجي في الشخص الذي كان بالبيت المجهول ، وارتاب
المريض في أنني خرجت لأسعفه وأنا؟! وأنا أعلم أنني
فعلت ذلك بكل وعي وكامل ارادتي ولكن ما الفائدة وما من
أحد غيري يعلم ؟

وأحسست بدموع ساخنة تسيل على وجهي . . . ولم أدر ما سببها
. . . هل كنت أبكي من أجل الناس ؟ أم كنت أبكي من أجل
نفسي ؟

الفهرس

ص	
٥	حنان قليل
١٣	كرامة
٢١	الطريق
٢٩	الكوافير سوسو
٣٥	لن تجديه يا ليلي
٤٤	ليست عذراء
٥١	هيتروفس ... هيتروفس
٥٧	الشيء الصعب
٦٧	مجرد صورة
٧٥	الدوسيه الضائع
٨١	ومات الحب
٨٧	سوسن
٩٥	فراغ
١٠٣	لا شيء
١١١	حينما اكون تافهة
١١٧	قصة من حياة طيبة
١٢٣	من أجل من؟



مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي من منشورات دار الآداب

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الأطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبية
- تعلمت الحب
- حنان قليل
- لحظة صدق

To: www.al-mostafa.com